معجزة القرآن.. ونعمة الحمد لله

القرآن الكريم بدأ بالفاتحة وهي أم الكتاب، والفاتحة بدأت بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ وأسباب الحمد كثيرة ؛ لأننا نحمد الشيء لذاته ؛ لأن فيه خصالاً تستحق الحمد، ونحمد الشيء لصفاته، فعندما نرى شيئا جميلاً كلؤلؤة بديعة نمدح صفاءها، أو زهرة جميلة نمدح جمالها، والحمد يكون أيضاً على النعم أو على وجه الدقة على ما نملك من النعم، فإذا أحسن إليك إنسان فأنت تحمده على إحسانه، وإذا أعطاك شيئا فأنت تحمده على عطائه، الحمد أيضاً يأتى لما أطمع في الحصول عليه ؛ فأنت تمدح إنساناً لأنك تعرف أنك ستنال منه خيراً، ومن هنا فإنك تقدم المدح لتحصل على الخير.

والحمد يأتى من الخوف من العقاب ومن وجودى تحت سيطرته، فإذا ارتكبت خطأ وكان هناك من يستطيع أن يعاقبنى على الفور ويبطش بى ؛ ولكنه قدم الرحمة على البطش والعقاب، فأنا أحمده لأنه قدم رحمته على عدله وعقابه.

هذه هى بعض العناصر التى يمكن أن تكون أساسا للحمد، فإذا أتينا إلى الله سبحانه وتعالى، وجدنا كل هذه العناصر وأكثر منها تستوجب الحمد لله، فنعم الله سبحانه وتعالى لا تُعد ولا تُحصى، ويعطى ويفتح الأبواب المغلقة، ويُيسر السبيل فى الدنيا ويعطى الصحة والمال، ويوفق فى العمل، ويصيب بخيره من يشاء.

وهو فى كل هذا معط لا يأخذ شيئا، أى إنه سبحانه وتعالى غير محتاج لنا فى شيء نحن جميعا لا نزيد ملك الله شيئا ولا ننقصه شيئا، والله خزائنه لا تفرغ أبدا ولا يستطيع أحد أن يعد نعم الله أو يحصيها، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومع تقدم إحصاءات الدنيا كلها فإن أحداً لا يستطيع ولا يحاول أن يحصى نعم الله سبحانه وتعالى، وهى نعم ظاهرة ونعم باطنة.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى الذى لا تُعد نعمه ولا تُحصى، والذى لو أردنا أن نحمده ما وفيناه حقه، ولو بقينا طول عمرنا نلهج بالشكر والثناء.

الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين قد جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، والعجيب فى هذا أنك تأتى لتشكر بشرا على نعمة واحدة أسداها إليك وتظل ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء، وربما لا يرضيه كل هذا، ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته إنما يكتفى بكلمتين اثنتين ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وذلك ليعلمنا مدى

القدرة، ومدى الشكر، والله الذى لا تعد نعمه ولا تحصى فى الدنيا والآخرة هو الذى يعدنا حسن الجزاء والحياة الطيبة فى الدنيا، والذى يقدم لنا فوق ما يقدم البشر فى العالم، وفوق قدرة هذا البشر جميعا إنما يكتفي منا بكلمتين اثنتين لشكره هما: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾.

الله الذى يعطى بلا حساب وينعم على كل المخلوقات، يكتفى بكلمتى الشكر هاتين ولذلك جاءت ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاتحة الكتاب، وجاءت أيضا خاتمة فى قوله تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، فكأن الحمد واقع فى الدنيا والآخرة، واقع والخلق فى حياتهم، وواقع بعد أن ترجع الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى.

ولقد كان يصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الإلهى ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حقه ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى أول الكتاب كيف نحمده، وسوى بين عبيده جميعاً فى صيغة الحمد؛ لأن المطلوب من كل عبد من عباد الله أن يحمده على نعمه، وليس كل عباد الله بقادر على أن يضع صيغة مناسبة لحمد الله سبحانه وتعالى.

فحين يعلمنا الله أن نحمده بقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، فهو يعطى الفرصة المتساوية المتكافئة لعبيده بحيث يستوى فى ذلك المتعلم والأمى، إذن.. فتعليم الله لعبيده صيغة الحمد نعمة أخرى يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد عليها، ولذلك فإن الإنسان إذا أراد أن يحمد الله على نعمه، فإنه يجب أن يحمده أيضاً على تعليمه نعمة الحمد فيظل العبد دائماً حامداً، ويظل الله سبحانه وتعالى دائماً محمودا.

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يضع على شفاهنا كلمة الحمد خلق لنا النعم التى تتعلق بالحمد، وإذا نظرنا إلى ترتيب الأسباب لوجدنا أن نعمة الله على الإنسان تسبق وجود الإنسان، فقد خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض وقدر فيها أقواتها وأرزاقها وعندما وُجد الإنسان بكلمة: ﴿ كن ﴾ كانت النعم موجودة، بل إن آدم عليه السلام أبا الإنسانية عندما خلقه الله سبحانه وتعالى عاش فى جنة لا يتعب فيها ولا يشقى، كل شىء متوافر فيها لحياته، وآدم إنسان بلا ماض، أى إنه جاء الحياة من دون أن يكون له ماض يسبقه ولكن نعم الله سبحانه وتعالى كانت تسبقه وتنتظره لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها لنفسه، ولكن صنعها الله سبحانه وتعالى له.

هذه مقدمة عن معنى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، وهى مقدمة يجب أن نقولها شكراً لله على كل نعمة أنعمها الله علينا، وهى مقدمة يجب أن تسبق ما سنتحدث عنه فى هذا الكتاب عن «الله والكون»، و «الشك والوجود» و «ظواهر الأشياء وحقيقتها» و «معجزة الإسراء والمعراج»، ولنبدأ حديثنا عن الله والكون.

❁ ❁ ❁

الله... والكون

حينما أتحدث عن الله سبحانه وتعالى، وعن قضية الوجود، أجد أن هناك كثيرين يحاولون التصدى لهذه القضية بالتشكيك أو بالإنكار ويجهدون أنفسهم في محاولة للوصول إلى أدلة مضللة تثبت نظرياتهم التى تفتقر إلى الدليل الصحيح.

وأحب قبل أن أبدأ هذا الحديث أن أقول: إن أمنية كل مسرف على نفسه، أمنية كل من كانت مصيبته فى دينه، أمنية كل إنسان يعصى الله، أن يحاول جاهدا الوصول إلى ما يشكك فى الوجود الإلهى، وهذا نابع من أن فى داخل كل إنسان عاص شيئاً يؤرقه وهو يحس أن هناك حساباً وأن هناك آخرة، وأنه سيلقى الله، وهذا يجعله ينطلق فى محاولاته للتشكيك فى الدين علّ نفسه تنخدع ولو كذباً بأنه لا حساب ولا عقاب.

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم خلال سنوات طويلة فى محاولاتهم للتشكيك فى الأديان السماوية، واستخدموا فى ذلك عقولهم وخداع المنطق فى هذه المحاولات، بينما ذهب عدد آخر من الفلاسفة إلى أن الدين عبودية، وأن التحرر من الدين هو الحرية وكلا الافتراضين خاطئ فيما يدعيه..

والإيمان بالله قضية مثارة أجهد الناس أنفسهم فيها، كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره فى هذا الموضوع، ومعنى هذا الجدل كله الذى يمضى ولن ينتهى، ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى، أو أدلة تنفى وجود هذه القوة معناه أننا نعرف الله بالفطرة، وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود، وإلا لما نهكت النفس البشرية قواها فى هذا الجدل، ولكان العقل البشرى يعيش سعيدا مطمئنا بالعلم المادى الذى خلقه الله له.

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة، نجد فى داخلهم قلقاً رهيباً يؤرقهم ويخيفهم رغم نجاحهم المادى، ونجد أعلى نسبة للجنون والانتحار هى فى أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية، ذلك أن الإنسان قد يحقق من النجاح المادى ما يحسده عليه كثيرون من الذين ينظرون إلى الحياة الدنيوية وحدها، ولكنه رغم هذا النجاح يعيش فى قلق رهيب؛ لأنه لم يحقق الانسجام بين نفسه وبين الكون، فالانسجام بين النفس والكون لا يكون إلا بالإيمان بالله واتباع منهجه.

ولنقرأ الآية الكريمة التى يفزع إليها كل مؤمن وهى آية الكرسي، يقول الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعنى: ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾

أنه دائم الحياة لا يدركه الموت ؛ لأنه هو الذى خلق الحياة والموت، ومعنى: ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أى: القائم على ملكه، وهذه تحتاج إلى تفسير، فبعض الناس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ووضع له قوانينه، ثم تركه يسير حسب القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى، وهى قوانين دقيقة لا تختل بالزمن ولا تتأثر بأى شىء ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه خلق الكون ووضع له قوانينه ولكنه قائم عليه . . أى إن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتركه لحظة واحدة.

ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن الله جل جلاله فى وجوده، يعلمنا ألا نيأس أبداً لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع قوانين الكون وطلب منا أن نأخذ بالأسباب وأن نتبع هذه القوانين، ونأخذ بالأسباب فلا نصل إلى شىء، فهناك دائماً ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القائم على ملكه الذى يمكن أن يفتح الأبواب ويحقق ما نحسبه مستحيلا أو غير ممكن فحينما لا تستجيب الأسباب فإن المؤمن يفزع إلى ربه، ويصيح قائلا : «يارب» إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى قائم على كونه، ينصر الحق على الباطل، والمظلوم على الظالم، ومن هنا حين يفزع إلى الله سبحانه وتعالى، إنما يعلم أن الله قادر متى عجزت الأسباب، وأنه إذا كان قد أخذ بالأسباب ولم تستجب إليه فالله سبحانه وتعالى هو قائم على كونه فى كل لحظة وثانية، يمكنه أن يبدل العسر يسرا، واليأس أملاً وفرجاً.

فهاجر رضى الله تعالى عنها تركت وليدها عند بئر زمزم وانطلقت تسعى من أجل الماء ولكن الأسباب لم تستجب لها، وبعد سبعة أشواط تعبت وتسرب اليأس إلى قلبها فضرب وليدها الأرض بقدمه، وهو الضعيف الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئاً فانفجر الماء.

ومحمد صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب فى الدعوة، وعندما خرج من مكة إلى الطائف ولقى ما لقيه من الصبية والسفهاء، جاءت الأسباب من الله لحدث الإسراء والمعراج تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة والوفود التى تصل إليها فى الحج إلى الإسلام فيعرضون، ثم جاء وفد من المدينة ليبايع رسول الله وكانت بداية الهجرة وانتصار الإسلام.

ولو نظر كل منا إلى حياته لوجد أنه قد مر فيها بأوقات توقفت فيها كل الأسباب، وأحس باليأس القاتل، وجلس يقلب المشكلة فلا يجد حلاً، ثم فجأة يأتى الحل من حيث لا يعلم ولا يدرى، إذن فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه، تفزع إليه النفس المؤمنة فى حالة اليأس فتحس بالاطمئنان والطمأنينة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يسمع ويرى وهو قائم على ملكه لا يتركه أبدا.

ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ و ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ ﴾، أى: إنه لا ينام

أبداً ولا يغفل، وهنا يريد الله أن يزيد من اطمئنان النفس التى يصيبها الفزع من هموم الدنيا، يريد أن يعيد إليها الطمأنينة والأمان، يقول سبحانه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾ أى لا يغفل عن شىء أبداً ولا لحظة، ومن هنا فإن هذه النفس المؤمنة تكون مطمئنة؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس غافلا عما يعمل الظالمون، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ ﴾ وتكون هذه النفس فى حياة طيبة تنام ليلها ملء جفونها، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينام، ومن هنا فإنه يقول لصاحب النفس المؤمنة، نم أنت ولا تخش شيئا فإننى لا أنام أنا أحرسك وأنت نائم وأنت مستيقظ، فلا تدع القلق يدخل نفسك وتحسب أنك إن نمت ليلك نال منك أعداؤك تذكر دائما وأنت تذهب إلى فراشك لتنام والقلق يملأ قلبك أننى أنا الله لا أنام، وأعرف وأشهد كل شىء فكن مطمئنا لحمايتى، وإذا كان الإنسان ينام مطمئنا إذا وضع على باب منزله حارسا أو خفيرا أو رجلاً ساهراً لا ينام الليل، فكيف بمن يحرسه الله، وكيف يكون الأمن الذى يحس به وهو يعلم أن القوة التى خلقت هذا الكون كله وأوجدته هى التى تحرسه، ومن هنا فإن المؤمن يحس دائماً بالاطمئنان إلى الله وبالأمان فى رعاية الله له فى أحلك الأوقات وفى أشد اللحظات.

وتمضى الآية الكريمة لتزيد من انسجام النفس البشرية مع الكون الذى خلقه الله فيقول الحق: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، هنا زيادة فى إدخال الاطمئنان على النفس البشرية فالله سبحانه وتعالى يقول لعبده، مم تخاف؟ من رزق لن تحصل عليه غدا، أو من عمل لن تنجزه غدا، أو من مال محتاج إليه لن يأتيك غدا تذكّر أن كل ما فى السماوات وما فى الأرض هو ملكى أعطى من أشاء وأمنع عمن أشاء. ففيم القلق وأنا الذى أملك وأُعطى، وفيم التفكير وأنا قادر على أن أعطيك ما تريد لأن كل الذى تراه أمامك وكثيرا مما لا تراه هو ملكى أعطى منه ما أشاء لمن أشاء، إياك أن تفزع من الغد وأن تخاف وأن تحس أنك وحدك فى هذه الدنيا، بل إننى معك وأنا حى لا أموت دائم الوجود ولا أنام أبدا ولا أغفل، كل شىء فى السماوات والأرض هو ملكى وما دمت أنت عبدى وآمنت بى، فاطمئن إلى قضائى، فإن كنت أرزق من يكفر بى وأطلب منك أن تستر من عصانى، فكيف بمن أطاعنى وآمن بى!

وتمضى الآية الكريمة فتقول: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾، وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا أنه لا يعطى الشفاعة إلا لمن أذن له، أى إنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول: لا تخف من أى إنسان فى الدنيا مهما كان ظالما، ولا تخش أحداً مهما كان جباراً، فهؤلاء جميعاً ليس لهم شفاعة عندى حتى أمكنهم منك ولكن الذى له الشفاعة عندى هو من أذنت له، ومن يأذن الله له يجب أن يكون قريباً من الله، وكل ظالم جبار فى الأرض هو بعيد عن الله سبحانه وتعالى.

ثم تمضى الآية الكريمة بعد ذلك فتقول: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾، أى إن الله سبحانه وتعالى يريد زيادة فى إدخال الإيمان والاطمئنان إلى قلب من يعبده فيقول له: ولا تحسب أننى لا أعرف ما يحدث وما يدبر لك فإننى أعلم ما بين أيديهم، أى ما يظهرونه، وما خلفهم، أى ما يسترونه أو يخفونه لأننى مطلع على الأعمال وعلى النوايا وعلى ما تُخفى الصدور ولذلك لا تخش أن يفوتنى شيء، أو يخفى علىّ من خلقى حتى ما يدور فى صدورهم ولا يبوحون به لأحد، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]معناه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر، ما هو السر؟ شيء مشترك بين اثنين، أى شيء اعتزمت أن أقوم به وأسررت به لأحد من أصدقائى أو أقاربى، ذلك أن السر، أى ما يسر به لغيره، أى ما يقوله له فيما بينهما سرًا، وما أخفى أى ما يخفيه فى صدره ولا يبوح به لأحد، أى يبقى هذا الأمر فى صدره، ولا يخرج إلى لسانه أبدا، وبقاؤه فى صدره بدون أن يسر به لأحد لا يجعله خافيا على الله سبحانه وتعالى، ولكن الله مطلع عليه، إذا كان هذا هو الحال، فمم تخاف وإذا كان الله يعلم كل شيء فما الذى يفزعك، وإذا كان الله لا ينام فلماذا تَخْشَى أنت النوم أو يذهب النوم عن عينيك؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾. أى إن علم الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحيط به أحد إلا ما يعطيه الله لمن يشاء وهناك علم يعطيه الله لمن يشاء من عباده، وهناك علم يعطيه الله للبشرية كلها، وهناك علم يختص الله به نفسه ولا يعطيه لأحد من عباده.

والعلم الذى يعطيه الله لمن يشاء من عباده هو ما يعطيه الله لرسله وأوليائه الصالحين وهذا كشف بين الله وبين مَنْ يشاء من عباده لا يمكن التحدث فيه؛ لأنه عطاء محدود بالعبد ذاته. ومختص به وليس موضوعا عاما للمناقشة، أما العلم الذى يعطيه الله للبشرية كلها فهو العلم المادى الذى يكشف الله عنه للبشر جيلاً بعد جيل، وهذا العلم لكل جزء فيه ميلاد حدده الله سبحانه وتعالى. فإذا صادف مولد هذا العلم إنسانا أو أناسا يبحثون ويجتهدون للوصول إليه أعطاه الله سبحانه وتعالى لهم.. وإذا لم يصادف هذا العلم أناسا يبحثون عنه أعطاه الله للبشرية بما نسميه «الصدفة»، كأن يكون هناك باحث يبحث عن شيء فيكتشف شيئا آخر مخالفاً له تماماً، هذا الكشف الذى لم يأت مطابقا للبحث الذى يتم وإنما جاء بطريقة الصدفة يكون كشفا من الله؛ لأن موعد ميلاد العلم للبشر قد أتى، ولذلك فإننا نسمع كثيرا عن عالم يجرى بحثا للوصول إلى نتائج معينة، وفجأة وهو فى أبحاثه يفاجأ باكتشاف لم يكن يتوقعه ولا يعرف أنه سيصل إليه كيف تم ذلك؟ نحن نقول بطريق الصدفة، ولكنه فى الحقيقة هو موعد ميلاد العلم للبشرية، ولذلك خرج إلى الوجود من علم الله إلى علم البشر بكلمة: ﴿ كُن ﴾؛ لأن موعد ميلاده المحدد منذ الأزل قد حان.

هذا هو العلم البشرى، أما علم الله سبحانه وتعالى الذى يختص به لنفسه فهذا لا يصل إليه البشر، وهنا ونحن نأخذ المعنى الإجمالى للآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول ومهما كان علم أولئك الذين يتربصون بك، ومهما أعدوا، فإن الله هو الذى يعلم، ويعلم فوق علمهم، ويعلم ما يفسد هذا العلم ويجعله عاجزاً، كل هذا ليحس القلب المؤمن بالاطمئنان إلى قضاء الله، وبأنه فى أمان وأمن مادام الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحرسه.

على أننى قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أشرح نقطة هامة تكمل المعنى هى أن الله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية، وعطاء ألوهية، الله سبحانه وتعالى كَرَبٌ للعالمين يُعطى الجميع عطاء ربوبية، ومن هنا قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف ١٧٢].

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى ألست إلهكم ويُشهدهم بالألوهية؟ لأن العطاء هنا عطاء ربوبية، الله رب العالمين، ما هو عطاء الربوبية؟

عطاء الربوبية هو عطاء متساو لخلق الله جميعا، كل من خلقه الله أعطاه عطاء الربوبية فمثلاً الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخّره للإنسان، والكون فيه قوى كثيرة أكبر وأضخم وأقوى من الإنسان، ولكنها خاضعة له بحكم أن الله سبحانه وتعالى قد سخرها له فالشمس والأرض والرياح، وكل القوى الهائلة فى هذا الكون هى أكبر كثيراً من الإنسان الشمس تستطيع أن تحرق الأرض بمن فيها، والأرض إذا اختل دورانها فنى البشر، والريح تستطيع أن تُدمر، والماء يستطيع أن يغرق، والأمطار إذا توقفت تجف الأنهار وتنعدم الحياة كل هذه القوى وغيرها مما خلق الله من توازن فى الكون هى قوى أقدر من الإنسان وأكبر منه، ولكنها مسخرة لخدمة البشر. فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم وسأغيب غداً، والماء لا يستطيع أن يغرق الأرض أو يجعلها كلها يابسة ويختفى منها ويرحل والأرض لا تستطيع أن تتوقف عن الدوران بإرادتها، لكنها كلها كقوى هائلة، مسخرة لخدمة الإنسان بإرادة الله.. فهى لا إرادة لها، ولا تستطيع أن تعصى لله أمرا.

فالله عطاؤه لهذه القدرات عطاء ربوبية، أى إنه لا يفرق بين مؤمن وكافر، بل يعطى خلقه جميعا، الشمس تشرق للمؤمن والكافر، والأرض يزرعها من آمن ومن لم يؤمن والمطر ينزل على أمة مؤمنة وعلى أناس لا يعبدون الله، قوانين الأرض هى عطاء ربوبية فالذى يفلح أرضه جيدا ويعتنى بها يحصل على ثمر وفير سواء أكان مؤمنا أم غير مؤمن والذى يهمل أرضه ولا يزرعها لا يحصل على شيء مهما كان إيمانه، والذى يستفيد بعلم الله الذى كشفه للبشرية فى أن ينشئ صناعة حديثة، أو أن يحرز التقدم فى الدنيا يجىء بثمرة ما فعل، وهكذا فالله عطاء ربوبيته لا يفرق بين إنسان وإنسان، والقوانين التى وضعها الله فى الأرض والأسباب التى خلقها تتفاعل مع من يأخذ بها سواء كان مؤمنا أو

كافرا، ولذلك قال الله تعالى حين أشهد خلقه عليه: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف ١٧٢].

هناك بعد ذلك عطاء ألوهية، وعطاء الألوهية هو عطاء لمن يؤمن بأن لا إله إلا الله الإيمان هنا عهد بين الإنسان وربه، ولذلك نجد أن القرآن الكريم يبدأ آياته فى سورة البقرة بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة].

ونجد الله تعالى فى كتابه العزيز يخاطب دائما المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، إذن.. فالإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الأساس فى عطاء الألوهية وهذا العطاء هو الذى يوجد فى القرآن الكريم، هو إيمان بالغيب، إيمان بالبعث والحساب، ثم طريق للحياة الآمنة المطمئنة الطيبة، رسمها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز للذين آمنوا.

إذن.. عطاء الألوهية هو الحياة الطيبة فى الدنيا وفى الآخرة لمن آمن بالله ولم يشرك به شيئا واتبع الطريق الذى رسمه الله للحياة فى كتابه الكريم وبينه لنا، وفى هذا الطريق إصلاح لكل مفاسد الحياة، وخلق لمجتمع كامل تسوده الرفاهية، ويسوده الأمن وتملؤه البركة.

ونحن فى كثير من الأحيان نأخذ تشريعاتنا عن بشر، ثم بعد ذلك نتعجب للشقاء الموجود فى المجتمع، والذى تخلقه هذه التشريعات، ولو أخذنا ما وضعه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، لأخذنا أكمل ما يمكن للبشرية أن تنشئ به مجتمعا فاضلا ذلك لأنه شتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى، والله خالق النفس البشرية وخالق هذا الكون، هو أعلم بما يسعده وبأصلح ما فى الحياة له.

ولذلك فإن القلب المؤمن الذى يتبع طريق الله يحس فى داخله بعطاء الألوهية فيملؤه الاطمئنان، وعندما نزلت الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين كانوا يحيطون به ليدافعوا عنه إذا حاول الكفار أو المنافقون إيذاءه، أمرهم أن يتركوه، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو القوة الكبرى التى خلقت كل شىء - يحرسه فلا يحتاج لبشر، ولا يستطيع بشر أن يقترب منه أو يؤذيه، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينام تحت ظل شجرة وبلا حراسة، لماذا؟ لأن قلبه كان مليئا بالآية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن هنا كان ينام مطمئنا وحده تحت ظل

الشجرة، مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى الذى لا ينام هو أقوى وأقدر مَنْ يحرسه، وهو أقوى وأقدر مِنْ كل حراسات الدنيا، ولذلك نام تحت الشجرة فى حراسة الله سبحانه وتعالى، ولم يستطع أحد أن يقترب منه.

إذن.. فقضية الإيمان، أن نؤمن بالله أو لا نؤمن، والإيمان بالله معناه أنك قد آمنت وصدقت بأن هناك قوة كبرى، تتنزه عن كل هوى وغرض، هى التى خلقت هذا الكون وسخرته لك، وأن هذه القوة ليس كمثلها شيء، فى العلم، والخلق.. والرحمة والانتقام إلى آخر صفات الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإذا دخل الإيمان القلب فلا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله سبحانه وتعالى، فإذا قال الله: افعل، فأنا لست مؤهلا لأن أقول: لماذا؟ لأن النقاش لا يكون إلا بين متساويين، وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر، وإذا قال: لا تفعل فأنا لست مؤهلا لأن أقول: لماذا؟ لأن علم الله لا يمكن أن يقاس بعلمى، ومع ذلك نجد بعض الناس يجادل بلا خجل ويدعى أنه مؤهل لمناقشة الله فى علمه، ولمناقشة الله فى طريق الحياة الذى رسمه للبشر.

الإيمان بالله تعالى هو تسليم لقدرات الله التى ليست فوقها قدرة، ولعلم الله الذى ليس فوقه علم، ولله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء، وهذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية.. وهو مدخل لا يأتى إلا بعد تفكير وتدبر فى الكون وآياته.

على أن بعض الناس يسمى تلك عبودية، ويقول: إن الدين عبودية، ونحن نقول: نعم الدين عبودية لله سبحانه وتعالى، وفرق كبير بين العبودية لله والعبودية للبشر، البشر عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدراتك ليضمها إلى قدراته ويجردك من الخير الذى تستطيع أن تحققه ليضمه إلى الخير الذى يملكه، فإذا استعبد إنسان مجموعة من البشر فإنه يجعلهم يعملون من أجله فيزرعون الأرض ويأخذ هو المحصول ويقيمون العمارات ويتملكها هو، أى إن عبودية البشر هى تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه، وهذه العبودية يرفضها الإسلام.

أما العبودية لله سبحانه وتعالى فهى عبودية لتزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة وتزيد من عطاء الله لك، فهى عبودية لصالحك، فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين غنى عن جهدك، وعن مالك، وعما تملك جوازا فى الدنيا، بل إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب كل شيء، فالمال مال الله، ينتقل من يد إلى يد، ولا يأخذ منه كل إنسان إلا رزقه، بل إن الله تعالى قد قال: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ﴾ [النساء: ٣٢] ليوضح الحكمة البالغة بأن الرزق الذى تحصل عليه أو الكسب الذى تصيبه ليس لك وحدك، فلزوجتك نصيب، ولأولادك نصيب، ولعدد من خلق الله نصيب، بل إننا نتعجب أحيانا من إنسان بخيل لا يمتع نفسه بما رزقه الله، ونتساءل فى عجب لماذا يفعل ذلك؟ وربما نلومه على ما يفعل، والجواب على ذلك أن هذا المال الذى اكتسبه والذى

يحرص عليه ليس رزقه ولكنه رزق خلق آخرين، وهو مجرد حارس عليه حتى يوصله إليهم، ومن هنا فإنه لا يستطيع أن ينفق منه ولا أن يتمتع به، وليبقى هذا الرزق بدون أن يُمس حتى يصل إلى صاحبه.

فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى عبودية عطاء، عطاء من الله لعباده، والله له ملك السماوات والأرض، وهو لا يريد أن نعبده ليأخذ جهدنا، أو ليحصل على ناتج عملنا أو ليكون له رزقنا. بل هو الذى يرزقنا ويعطينا، ويمنحنا ويبارك لنا فى جهدنا، وهو الذى ييسر لنا كل أمر عسير، ويفتح أمامنا الأبواب المغلقة، فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى لصالح العبد، هى زيادة للعبد فى كل شىء، وبركة له فى ماله وصحته وأولاده وحفظ له من كل شر وسوء.

عبوديتنا لله تجعل الله عونا لنا فى كل أمورنا، ومن منا لا يريد أن يكون خالق السماوات والأرض عونا له على ما يريد، ومِنّ هنا فإن عبوديتنا لله نحن نرجوها ونطلبها ليعيننا الله ويكون معنا، بينما عبودية الإنسان للإنسان هى أخذ من جهد الإنسان وعرقه وعمله لإنسان آخر، وشتان بين الاثنين.

والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالحياة الطيبة، فهو عندما يقول: افعل، يريد لى بهذا الفعل السعادة فى الدنيا والآخرة؛ لأن فعلى لن يزيد فى ملك الله شيئا وعدم فعلى لا ينقص من ملكه شيئا، ومن منطلق الإيمان عندما أتبع طريق الله فإننى أختار الحياة الطيبة ليس حسب قدراتى أنا، ولكن حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شىء ومن منطلق عدم الإيمان فإننى أناقش وأفلسف وأقرر حسب قدراتى، والفرق بين الإيمان وعدم الإيمان هو اختيار بين حياة رسمها الله سبحانه وتعالى بقدراته التى لا تحدها حدود ولا قيود، وبعلمه الذى لا يصل إليه إنسان، وبين حياة أرسمها أنا بعقلى المحدود، والهوى الذى يملأ نفسى.

والله سبحانه وتعالى فى كل رسالاته السماوية طلب منا أن نتدبر فى الكون، وأن نبحث عن آيات الله. لماذا يأمرنا الله بهذا؟ لو أن فى هذا الكون دليلاً واحداً على عدم قدرة الله ووحدانيته، ما أمرنا الله أن نتدبر فى الكون، وأن نتدبر فى أنفسنا، لماذا؟ لأن الذى يعرض عليك شيئا فيه أدنى شك، لا يقول لك افحصه جيداً، وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشىء الذى تنظر إليه حتى لا تتبين فيه أى نقص أو عيوب، أما الذى يقول لك تدبر وفكر وانظر، فهو موقن من إتقان العمل. ولذلك يريدك أن ترى الإبداع والإتقان الموجود، وأن تشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق.

ولأضرب مثلاً بسيطا يقرب ذلك إلى الأذهان، إذا دخلت لتشترى أى شىء فى هذه الدنيا وجاء إليك صاحب الشىء أو صانعه، فهو بين أمرين: إما أن يكون الشىء متقنا إتقانا

بديعا وحينئذ يقول لك صانعه: افحصه جيداً، فإذا فحصته مرة، طلب منك أن تفحصه مرات ومرات، لماذا؟ لتتبين دقة الصنع وتعرف كمال الشيء، فإذا انتهيت من فحصه قال لك افحصه مرة أخرى، وهكذا يظل يطلب منك أن تفحص الشيء مرات ومرات، وإما أن يكون الشيء فيه عيوب، والصانع يحاول أن يغشك ويخدعك وحينئذ يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك عما فى يدك، حتى لا تتبين عيوبه أو النقص الذى فيه.

والله سبحانه وتعالى يطلب منا فى قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون.. ويقول إن فى هذا الكون آيات بينات، وإن فى خلقكم وخلق السماوات والأرض آيات بينات وفى أنفسكم، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون وخالق البشر وعالما بأسرار كل شيء أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص وأشياء لا يعرفها، قد يأتى التدبر فيها بنتيجة عكسية ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو القائل، وهو العالم، وهو يعرف دقة ما خلق ولذلك يقول تدبروا فى الكون، انظروا فيه، ستجدون آياتى وإعجاز خلقى وقدرتى انظروا فى أنفسكم، ويؤكد سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، أى آيات التى يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى، ويتحدى بها، إلا إذا كان قد خلقها بقدرة وإعجاز؟

إذن.. فهذا التحدى فى التدبر فى آيات الكون، والتدبر فى الخلق، والتدبر فى أنفسنا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان القائل هو الخالق، هو الذى وضع آيات ومعجزات فى هذا الكون، تدل على عظمته، وعلى قدرته.

ونحن حينما نتدبر فى الكون نرى عظمة الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الهدف الأول للعقل البشرى، أن يتدبر فى الكون ويعرف ماذا خلق الله سبحانه وتعالى، وأنه لن ينسجم مع هذا الكون إلا إذا خضع لخالقه.

ولكن الإنسان الذى أخذ الأمانة فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب ٧٢].

ما هى الأمانة؟ الأمانة هنا معناها حرية الاختيار، بدون أى ضغط خارجى، ووصف الله سبحانه وتعالى للإنسان بأنه جَهول عندما قَبل أن يحمل الأمانة، معناه أنه لم يعلم ولم يقدر مسؤولية هذه الأمانة وثقلها.

ولنضرب مثلاً صغيراً يقرب هذا إلى الأذهان، لنفرض أن إنساناً قد جاءنى وأعطانى مبلغاً من المال، وقال: هذا أمانة عندك، ثم أتى كل شهر، أو كل فترة ليعطينى مبلغاً آخر

ويقول هذا أمانة عندك، وأخذت أنا هذا المال ومتعت به نفسي وأسرفت عليها وبذرت، ثم جاء وقت السداد، وجاء صاحب المال يطلب ماله، وأنا ليس عندى منه شيء، هذا هو ما حدث فى الدنيا، الله سبحانه وتعالى أعطانا من النعم ما لا يعد ولا يحصى، وقال تمتع بهذا كله، ولكن عليك أمانة تحملها، هى ألا تفسد فى الأرض وألا تسرق، وألا تستخدم نعمى فى معصيتى أو فى ظلم الناس، وقبل الإنسان الأمانة ولكن الشيطان استطاع أن يتسلل إلى نفسه منتهزا الفرصة فى أن الإنسان قد حمل الأمانة أى حرية القرار، والله قال له: «افعل»، وقال له: «لا تفعل»، وفى هذه الحالة لم يضع على إرادته الحرة أى قيد أو ضغط، ومادام الإنسان قد أعطى حرية الاختيار، فكان هناك الحساب، الرسالات السماوية التى أرسلها الله سبحانه وتعالى بينت للإنسان الطريق، ولكن الأمانة التى حملها والتى رفضت كل مخلوقات الله أن تحملها، أعطته الحرية فى أن «يفعل» أو «لا يفعل» وفى أن يخالف أو أن يعصى ومادام الله قد قال: « افعل» فمعنى قوله تعالى إن فى مقدور الإنسان أن «يفعل» أو «لا يفعل»، وما دام الله قد قال فى أشياء «لا تفعل» فإنه فى مقدور الإنسان أن «يفعل» أو « لا يفعل»، والإنسان وحده هو القادر على ذلك فالجبال مثلاً ليس لها اختيار، وكذلك الشمس والقمر والنجوم، فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم أو لن أشرق، والنجوم لا تستطيع أن تختار أن تسطع ليلة وتغيب ليلة أخرى، بل إن الملائكة ليس لهم اختيار وإنما يفعلون ما يؤمرون، ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة أخذ حرية الاختيار فى الدنيا، فماذا فعل؟

صور له جهله أشياء كثيرة، فعبد أشياء لا تنفع ولا تضر، عبد الشمس والنار والأحجار والأصنام والحيوانات المفترسة، انطلق يعبد كل شيء صوره له جهله، وأضله الشيطان عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له، انطلق الإنسان جاحدا نعمة الله وترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى رحمة به ليبين له طريق الحياة الآمنة الطيبة، وأخذ يشرع لنفسه تاركا شريعة الله، وتغلبت عليه أهواؤه فأخذ يُخضع الأشياء لهوى النفس وليس للحق، فأصابه الشقاء فى الدنيا، وحلت به الكوارث.

ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك؟ لقد لخص الله سبحانه وتعالى فى بلاغة رائعة ووصف بليغ مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حين أورد لنا فى القرآن الكريم كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله، ذلك أنه حين تم الإغراء تم بجملة واحدة أوردها الله تعالى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى وهو يصف إغراء الشيطان للإنسان: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

إذن.. فالإنسان يريد شيئين من الدنيا، حياة خالدة لا تنتهى، ومالاً وفيراً لا يفنى يريد أن يبقى خالدا لا يموت، وأن يكون له ملك يوفر له حياة الترف والعبث التى تهواها النفس وألا يتأثر ماله بكل ما ينفقه، وألا يتأثر عمره بالسنوات، يريد شبابا دائما، وكنوزا

لا تعد ولا تحصى، ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية، هذه الآلهة كلها التى اخترعها الإنسان وعبدها كانت إما - وهما - جالبة للرزق والجاه فى الدنيا، أو - وهما - دافعة لأذى أو مرض يؤدى للموت، وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا، بل إن عبادة الناس للبشر تأتى من خلال هذين المدخلين، فهو إما أن يرجو رزقا يتمتع به، أو يرجو شفاء وقدرة لطول الحياة بما يصوره له وهمه من قدرات يعتقدها فى بشر، والحقيقة أن هذه الآلهة لا تفعل هذا ولا ذاك، ولا تملك النفع والضر حتى لنفسها، ولكن الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تضعف إلى الدرجة التى تعتقد فيها أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا فإن هذا النفع أو الضر الوهمى هو خوف فى النفس البشرية، يدخل بسبب عدم الإيمان، وإلا فالنفس المؤمنة تعلم أن الله معها، وأن هذه القدرة الخارقة القادرة هى التى تدافع عنها وتحميها وترعاها وتحرسها حتى عندما تنام كل الأعين لأن عين الله لا تنام.

والذى يؤمن إيمانا حقيقيا بذلك ليس محتاجا لأن يستعين بمن هم أقل قدرة من الله وشتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى، فكونى أترك القدرة المطلقة إلى مالا ينفع ولا يضر بعدم إيمانى هو جهل منى يجعلنى ألتجئ إلى غير الله، وهذا الجهل وضعه فى نفسى هوى أنا أريد أن أحققه.

ولنوضح هذه النقطة قليلاً، أنا مثلاً عندى مال، ولكنى أريد أن أحصل على مال غيرى وبدون وجه حق، الحياة السعيدة التى رسمها الله تعالى تقول لى: لا، لا تفعل ذلك وهى تقول هذا لتحمينى أولا، فأنا فرد واحد فى مجتمع، عندما أستبيح مال غيرى وأجعل هذا مبدأ، فإن هناك ملايين من الأشخاص فى هذا المجتمع يكون لهم الحق فى أن يستبيحوا مالى ومن هنا حرم الله سبحانه وتعالى ذلك ليحمينى، ولو كنت أتدبر لعرفت أن عدم استباحة مال غيرى هو حماية لى ولمالى، ولكننى أريد ملكا لا يبلى والشيطان يعمل على ذلك والله أخبرنى عن مدخل الشيطان إلى نفسى حتى أعرفه، وأقى نفسى الزلل والانزلاق، ولكنى مع ذلك أنطلق لهوى فى نفسى، وهو أن أملك، وأملك بلا حدود ملكا لا يبلى فآخذ مال غيرى، حينئذ تقفز إلى النفس البشرية التى هى فى أعماقى والتى رأت الله وتعرفه جيدا مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف ١٧٢].

هذه النفس تؤرقنى، أحس فيها بما ينتظرنى جزاء لهذه المعصية، ومن هنا فإننى أحاول بقدر طاقتى - ولو وهما - أن أحتمى بأى شىء تاركا شريعة الله لهوى فى نفسى فآتى بحجر وأدعى أنه هو الذى جلب لى الرزق، أو آتى بحجر وأقنع نفسى زيفاً بأنه سيحمينى من عذاب الله، أحاول أن اطمئن نفسى وأزيل عنها القلق الذى يملأ النفس البشرية ويؤرقها ويحطمها عندما تغرق فى المعصية.

ولنضرب لذلك مثلاً: لو أننا أتينا بشاب فى ريعان شبابه ثم جئنا له بأجمل فتيات الدنيا وقلنا له هى لك هذه الليلة، ثم فتحنا له باباً مستوراً فى الحجرة ليرى «النار» وقلنا له بعد هذه الليلة سيكون مصيرك هنا، فهل تعتقد أنه سيرتكب المعصية؟ الجواب أبدا، ولكن لأن الجزاء مستور عنا فإن الشيطان يدخل إلى النفس البشرية محاولا إيهامها بأنه لا جزاء وهذا الوهم يصبح هوى فى النفس؛ لأنه يطلق العنان لشهواتها ويحل لها أن تظلم غيرها وتأخذ حقه، ومن هنا فإنها فى محاولة إنكار وجود الله سبحانه وتعالى تحاول أن تبذر الشك، فإن أقصى ما تتمناه النفس العاصية هو أن يكون الله ليس موجودا، ولكن الله موجود، والشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو إثبات لهذا الوجود.

الإسلام... إما دين وعقيدة وإما نفاق

الإسلام إما أن يكون عن عقيدة فهو دين ؛ وإما أن يكون عن غير عقيدة فهو نفاق ولكي نبدأ الحديث يجب أن نحدد، ما هو معنى العقيدة أولاً؟

العقيدة: هي قضية اختمرت في القلب اختماراً واقتنعت بها تماماً ؛ بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى العقل لتناقش من جديد، قضية قتلتها بحثاً وتمحيصاً ودراسة ومناقشة واقتنعت بها تماماً، بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى الذهن مرة أخرى، فإذا طفت إلى العقل لتناقش من جديد، فالإيمان هنا ناقص، ولذلك حين ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾، ماذاقال الله سبحانه وتعالى لهم: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤]

إذن.. فالإيمان هو عقيدة اقتنع بها القلب تماما، بحيث لم تعد تطفو إلى العقل من جديد وهو لا يأتي في منطقة الحس، أو المنطقة التي تخضع للحواس عندنا، بمعنى أنك لا يمكن أن تقول لإنسان أنا مؤمن، إنني أراك أمامي، وأنت تراه أمامك فعلا، ولا تستطيع أن تقول أيضاً إنني مؤمن أن هذا الكوب ممتلىء، والكوب ممتلىء بالماء، وأنت تراه أمامك، تلك ليست منطقة الإيمان، ولكن منطقة الإيمان هي الغيب، شيء غيبي عنك لا تراه ولا تستطيع أن تصل إليه بحواسك، ولذلك فإننا في كثير من الأحيان نحاول أن نشبه الإيمان بأنه يقين عندنا كالشيء الذي تراه، فتقول أنا متأكد أن هذا سيحدث، أو أنا مؤمن أن هذا سيحدث، كما أراك أمامي تماما، الذي سيحدث هو غيب عني، قد يحدث وقد لا يحدث، أنا لا أستطيع هنا أن أقطع بذلك، ولكن تصديقا مني للإيمان، فأنا أقول: إن هذا سيحدث كما أراك أمامي، يقينا بالغيب.

وإذا كان ذلك في أمور الدنيا الصغيرة، فكيف في الإيمان بالله سبحانه وتعالى، اليقين هنا يجب أن يكون على درجة عالية، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وحين تشبه العبادة هنا بالرؤية، فالرؤية ليست قضية جدلية، بمعنى أنك ترى الشيء

روى البخاري [٥٠]، ومسلم [٩/٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأبو داود [٤٦٩٥]، والترمذي [٢٦١٠]، والنسائي في المجتبى [٤٩٩٠]، وابن ماجه [٦٣] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

أو لا تراه، الإيمان أيضاً إذا خرج إلى دائرة الجدل والمناقشة الذهنية، خرج عن معناه ولم يصبح إيمانا، مادام هناك جدل ما يزال فى العقل، فالإيمان غير كامل.

ولكن فيم يدور الجدل، إنه يدور حول الدليل على وجود الله أو محاولة إنكار وجود الله نأتى أولا إلى الذى يجادل فى الدليل على وجود الله، ونسأله: حينما أقبلت على وضع الدليل على وجود الله، فما الذى حملك على ذلك؟ ما الذى جعلك تُتعب عقلك وفكرك لتضع الدليل على وجود الله؟ الذى دفعك لذلك هو أن الله موجود فينا جميعا بالفطرة، أولئك الذين يؤمنون به فيطيعونه؟ ويعملون بتعاليمه، وأولئك الذين يُسرفون على أنفسهم، ويشعرون بعظم العقاب الذى ينتظرهم، تُحسه نفوسهم التى تعرف الله بفطرتها، فيجهدون عقولهم فى محاولة النيل من دين الله، وهم فى الحقيقة يحاولون الهرب ولو عقليا، ولو بطريق التضليل من حساب هو واقع عليهم.

إذن.. فالذى يحاول أن يضع الأدلة على وجود الله، فى الحقيقة قد أثبت هذا الوجود من دون حاجة إلى دليل، فالدليل على وجود الله، هو طلب الدليل على وجود الله ذلك أن طلب هذا الدليل، وإجهاد العقل فيه، معناه أن الله موجود فينا بالفطرة، نُحس به ونشعر بوجوده، ونعرف أنه موجود.

إذن.. فوجود الله سابق لمحاولة الوصول إلى دليل، وهذه المحاولة التى هى قائمة وستظل قائمة إلى أن تنتهى الحياة، إنما هى إعلان بأن الله موجود، ونحن نحاول أن نستخدم ما يلائم عقولنا من أدلة، ولو بحثنا ودققنا فى الرسالات السماوية التى أرسلها الله لنا، لوجدنا أكبر الأدلة وأقواها موضوعة بالطريقة التى تناسب العقل البشرى وقدراته الماضية والحالية والمستقبلة ومُفصّلة تفصيلا يملؤه الإعجاز.

وإذا دققنا فى علم الله ووصوله إلى الإنسان، فهو اتصال الكلمات بالعقل، أو كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، أي إنه سبحانه وتعالى علّم آدم معانى الأشياء وأسماءها، ثم أتى الله بالملائكة، وقال لهم: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، فلم يعرفوا ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

إذن.. فالمعنى يجب أن يوجد أولاً، أو الشىء يجب أن يوجد أولاً، ويكون مفهوماً لدى السامع، وموجوداً أصلاً فى ذهنه، ثم تأتى الكلمة لتبرز هذا المعنى إلى العقل، فإذا قلنا: منزل مثلاً، فإن له معنى معيناً فى عقولنا، هو مكان يقيم فيه الناس مكون من عدة حجرات، إلى آخر ذلك، ومن هنا فإنه إذا ذكرت الكلمة، قفز المعنى الموجود أصلا فى العقل لتكون مقبولة، أو إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل، ولم يعرف بوجودها جيدا، كأن تأتى لرجل عاش فى أرض سهلة لم ير جبلا فى حياته، ثم

تقول له كلمة: جبل إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل، ولا يفهم شيئاً، ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذى تتحدث عنه أو تقوله له، ومن هنا فهو لا يفهمه ولا يعرفه؛ لأنه لم يدخل إلى عقله أولا، إذا قلت لإنسان مثلاً، إن ذلك تم بالعقل الالكترونى، فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئا مادام لا يعرف ماذا يفعل العقل الالكترونى ولكنك إذا قلت كلمة الله فإن العقول كلها تفهمها على أنها تلك القوة القادرة القاهرة التى خلقت الدنيا كلها، ولكننا لم نر الله، فكيف نفهم هذه الكلمة، لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة، وغير موجود فى عقولنا ونفوسنا، لما فهمناها أبدا، ولما أخذت هذا المعنى العالمى الذى ينسجم مع النفس البشرية، إن يقيننا بوجود الله هو الذى يجعلنا نفهم هذه الكلمة، ووجود الله فينا بالفطرة هو الذى يجعلها تدخل إلى عقولنا؛ لأن أي كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين فى العقل البشرى أولا، بل إن وجود هذا المعنى يجب أن يسبق ما تقول، فأنت لا تستطيع أن تحدث أحداً بكلمة «جبل» ويفهم ما تقول، أو كلمة «قوى» ويفهم ما تقول، إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً فى عقله، قبل أن تنطق بالكلمة فالمعنى يوجد أولاً، ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه، وإذا راجعنا قواميس اللغة فى جميع أنحاء العالم، نجد أن الكلمات الموجودة فيها؛ هى لأشياء موجودة أصلا، وأن هذه القواميس تراجع كل عام لإضافة أسماء لأشياء وجدت، ولم تكن موجودة فى العام الذى قبله، وذلك بمعنى أن الشىء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يعطى تسمية، بل إن هذا فى حياتنا اليومية ملحوظ فى كل شيء، فهناك أسماء كثيرة فى اللغة تُضاف إلى القواميس كل عام وهناك علماء متخصصون يجتمعون فى مجمع اللغة، ليضعوا الأسماء لمعان أو لأشياء وجدت ولم تكن موجودة، إذن فالأصل أن يوجد الشيء أولا ثم يضع الإنسان له الاسم ووجود اسم الله سبحانه وتعالى فى جميع لغات الأرض معناه أنه موجود فى أذهان البشر وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها، وقبل أن ينطق لسان بأية لغة.

ولفظ: الله، معناه واحد فى كل العقول، وفى كل اللغات، بل إن تقبُّل العقل البشرى لاسم الله سبحانه وتعالى معناه؛ أن هذا العقل يعرف الله بالفطرة، وإن كان الله فوق قدرة العقول، ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسالات السماوية، إلى الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

هذه الآية الكريمة التى أخبرنا بها الله تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل، فقد عرفنا وجود الله يقينا، وهذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا عليها أحد، ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنسانا ينطق لفظا غريبا لا

معنى له ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا، ونحس به فى داخلنا، ونحس بقدرته وقوته وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده، وهناك أميون لا يقرأون كلمة واحدة فى حياتهم فإذا أخبرتهم عن أى شىء فى الدنيا، سألوك: ما معنى هذا الذى تتكلم عنه، نحن لا نفهمك، إلا كلمة الله سبحانه وتعالى، فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم، والصبى والرجل، والكهل، وكل إنسان يجلس أمامك، ولن تجد أحدا يقف ليسألك: ماذا تعنى كلمة الله، أو يقول: إننا لا نفهم هذه الكلمة؟ لماذا، لأن الله يوجد فينا بالفطرة، ومن هنا فإن الطفل يعبده، والإنسان البسيط الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يعبده، والإنسان المتعلم يعبده، والإنسان الذى تبحر فى العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبده، وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا، ولكنها جميعا لا يوجد بينها تصادم فى عبادة الله.

وأنت تدخل إلى المسجد، تجد عباد الله جالسين معاً، عقول كلها مختلفة فى السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعى والطباع والعادات وكل شىء، ولكنها كلها منسجمة فى عبادة الله تركع له معاً، وتسجد له معاً، وتقرأ له القرآن معاً، وتسبح له معاً، كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان الله موجودا فينا بالفطرة، وإلا مصداقا للآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

على أن الذين يحاولون إنكار وجود الله، فمحاولة الإنكار هذه وحدها إثبات؛ لأنك لست محتاجا إلى أن تنكر ما ليس له وجود، فالأرض مثلاً بعض الناس يقول: إنها كروية وبعض الناس يقول: إنها مبسوطة، ويحدث جدل، لو لم يَرَ الناس أمامهم الأرض مبسوطة ولو أن العلم لم يثبت لهم أنها كروية لما حدث هذا الجدل، فالجدل هنا حدث؛ لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين.

إذن.. فقبل النفى والجدل، هناك وجود، وإذا أردنا أن ننفى نظرية علمية إذن فهذه النظرية يجب أن تكون أولا موجودة وإلا فكيف ننفيها، الخلاف هنا على النفى والوجود يجب أن يكون على واقع، وإلا انتفى الجدل نفسه؛ وعلى ذلك فمحاولة إنكار وجود الله، قد سبقتها حقيقة أن الله موجود فعلاً، وإلا فلماذا يحاول أى كافر أن ينكره، محاولة النفى والجدل لا يمكن أن تتم إلا لشىء موجود وإذا لم يكن هناك شىء أصلا، ففيم أجادل، ومن الذى أحاول أن أنفى وجوده.

الشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو إثبات لهذا الوجود، والذين يحاولون وضع الأدلة للتشكيك فى وجود الله، هم فى الحقيقة أثبتوا هذا الوجود بدون حاجة إلى دليل فالدليل على وجود الله هو طلب الدليل على هذا الوجود، وإجهاد العقل فيه، معناه أن الله موجود فينا بالفطرة.

إذن . . انتهينا من هذه الحقيقة، وأن الله موجود فينا بالفطرة، يحس به كل قلب بشرى حتى أولئك الذين يكفرون به يخشونه، ويخافون يوم الحساب، وهم فى محاولتهم الإنكار، إنما يحاولون أن ينكروا العذاب الذى ينتظرهم ويقنعوا أنفسهم، ولو كذبا، بأن هذا العذاب لن يحدث، ولن يتم، ولن يكون، ومن هنا تأتى محاولة الإنكار خوفا من لقاء الله ورعبا مما توعدهم به، ومحاولة أن يطمئنوا أنفسهم المرتعدة من الداخل والتى تحس بيوم الحساب، محاولة طمأنتها خداعا، بأنه ليس هناك حساب محاولة جمع الأدلة ولو باطلا على ذلك، وتظل النفس الكافرة فى شقاء فى الدنيا حتى ينتهى أجلها، فهى لا تعرف الطمأنينة أبدا، وهى تخشى الغد دائما مهما أعطاها اليوم من أمان واطمئنان.

على أننا يجب أن نتحدث عن منهج الله، ولماذا يحيد عنه بعض الناس، هل لأن منهج الله لا يحمل العدل والسعادة، لكل الناس لماذا تحاول النفس البشرية أن تختار لها طريقا آخر مرة تسميه الفكر المعاصر، ومرة النظريات الحديثة، لماذا تهرب من طريق الله؟

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع قيوداً على هوى النفس البشرية، وهذه القيود لم يضعها لصالح فئة معينة، وإنما وضعها لصالح البشرية جمعاء، ولكن الطمع البشرى بلا حدود والإنسان يريد أن ينطلق بغرائزه، رغم أنه يعرف أن ذلك يأتى بضرر بالغ على المجتمع غريزة حب الامتلاك مثلاً، الإنسان يريد أن يملك كل شىء، القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وينظر إلى ما يملكه بعض الناس ويتساءل لماذا؟! هل سيستطيعون إنفاق كل هذا ولو عاشوا ضعف أعمارهم. . والجواب يكون فى كثير من الأحيان «مستحيل».

ويأتى السؤال الثانى: هل سيأخذون شيئا من هذا معهم بعد الموت بعد الأجل؟ والجواب أيضاً: «مستحيل»، إذا كان ذلك مستحيلاً، فلماذا كل هذه الحرب على الامتلاك؟ والجواب: أن النفس البشرية، رغم يقينها أنها ستموت تظن أن عمرها سيمتد سنوات وسنوات، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم أر يقينا أشبه بالشك، من يقين الموت»[1].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].
قال القرطبي: فيه مسألة واحدة: وهو أن اليقين الموت. أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته، وأن ذلك يجب عليه. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ وكان قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ كافيا فى الأمر بالعبادة. قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا؛ وإذا قال: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت. فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ولم يقل أبدا؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبدا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد. وقد تقدم هذا المعنى. والمراد استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١]. ويتركب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق أبدا، وقال: نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة. ولو قال: طلقتها حياتها لم يراجعها. والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية، =

ولكن الله سبحانه وتعالى حرص على أن يهذب غريزة التملك فمنع الاعتداء على

= وكانت من المبايعات، وفيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما عثمان - أعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به» وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله.

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه يقول: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له؛ يعني كأنهم فيه شاكون. وقد قيل: إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك؛ قال ابن شجرة؛ والأول أصح، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن. والله أعلم. وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين لكن أوحي إلي أن: سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

وقال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير: «الدنيا دار من لا دار له» قال الطيبي: لما كان القصد الأول من الدار الإقامة مع عيش هنيء أبدي والدنيا بخلافه لم تستحق أن تسمى دارا فمن داره الدنيا فلا دار له: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ١٢٩] قال عيسى:

من ذا الذي يبني على الموج دارا تلكم الدار فلا تتخذوها قرارا

«ومال من لا مال له» لأن القصد من المال الإنفاق في وجوه القرب فمن أتلفه في شهواته واستيفاء لذاته فحقيق بأن يقال لا مال له ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولذلك قدم الظرف على عامله في قوله: «ولها يجمع من لا عقل له» لغفلته عما يهمه في الآخرة ويراد منه في الدنيا والعاقل إنما يجمع للدار الآخرة ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧] قال الحكيم: لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه، فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو أفنى وأنشد ابن أبي الدنيا:

يا فرقة الأحباب لا بد لي منك ويا دار دنيا إنني راحل عنك
ويا قصر الأيام ما لي وللمنى ويا سكرات الموت ما لي وللضحك
وما لي لا أبكي لنفسي بعبرة إذا كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي
ألا أي حيّ ليس بالموت موقنا وأي يقين منه أشبه بالشك

رواه أحمد والبيهقي عن عائشة والبيهقي عن ابن مسعود موقوفا. قال المنذري والحافظ العراقي: إسناده جيد وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير دويل وهو ثقة.

وقال المناوي في شرح حديث قال لي جبريل: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت» قال بعضهم: هذا وعظ وزجر وتهديد والمعنى فليتأهب من غايته للموت بالاستعداد لما بعده ومن هو راحل عن الدنيا كيف يطمئن إليها فيخرب آخرته التي هو قادم عليها وقال ابن الحاجب: هذا تسمية للشيء بعاقبته نحو لدوا للموت وابنوا للخراب «وأحبب من شئت فإنك مفارقه»، أي: تأمل من تصاحب من الإخوان عالما بأنه لا بد من مفارقته فلا تسكن إليه بقلبك ولا تطعه فيما يعصي ربك فإنه لا بد من فرقة الأخلاء كلهم إلى يوم قيل فيه ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] فإن كان ولا بد فأحبب في الله من يعينك على طاعة الحق تعالى ولا تعلق قلبا عرف مولاه بمحبة سواه. قال بعض العارفين: من أحب بقلبه من يموت مات قلبه قبل أن يموت «واعمل ما شئت» مبالغة في التقريع والتهديد من قبيل ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ يجازيكم به فإن كان العمل حسناً سرك جزاؤه أو سيئا =

ما يملكه الغير ؛ ليحمى كل فرد من المجتمع، وليلتزم المجتمع كله بأن يحترم حقوق بعضه نهى عن المال الحرام، وعن أكل حقوق الضعيف ليحميه من بطش القوى، وعن أكل أموال اليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة، وسرقة أموال الناس، لماذا؟ ليحمى القوى إذا ضعف وليحمى القوى وهو قوى.

قد تبدو العبارة متناقضة ولكنها صحيحة، إن الله الذى حرم علىّ ما يملك غيرى - حرّم على غيرى وهو المجتمع كله من أن يأكل حقى، وأعطى لكل ذى حق حقه، حرّم علىّ أن آخذ حقوق غيرى وأنا قوى وهو الضعيف ليحميه منى، ولكنه فى الوقت نفسه حمانى من المجتمع الذى مهما كنت قويا كفرد، فأنا ضعيف أمامه، وإذا كان الله قد أباح لى أن آكل مال الضعيف فقد أباح للمجتمع كله أن يأخذ مالى، بلا حق، وبلا حساب.

وهنا نرى عدل الله، إنه يحمى الضعيف من القوى، وفى الوقت نفسه يحمى القوى من المجتمع، أى إن التشريع هنا فى صالح المجتمع كله، غنيه وفقيره، ضعيفه وقويه، ثم وضع الرحمة والتعاطف والتآخى بأن يعطى الغنى من ماله للفقير لينعم المجتمع بالسلام وليخرج الحقد والبغضاء والكره من النفوس، وتحل مكانها الرحمة والتآلف والتآخى هذا هو تشريع من تشريعات الله سبحانه وتعالى، قد يقف ظاهرا ضد أطماع بعض النفوس البشرية التى تريد أن تملك بلا حدود، وتطمع فى أن تأخذ حق غيرها بلا وازع، وأن تستحوذ على كل شيء، ولكنه وهو يضع القيد يحمى هؤلاء الناس من أنفسهم، من أطماعها التى تؤدى بها إلا الهلاك فى الدنيا والآخرة، ويحمى المجتمع كله، ليجعله مجتمعاً سعيداً متآخياً.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الغريزة الجنسية، فإننا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحمى النفس البشرية مما يفسدها، ويحميها من المجتمع أيضاً.

يُحكى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إنى أعاهدك على الإسلام، ولكنى رجل أحب النساء، ولا أستطيع أن أتخلى عن هذه العادة، فهل تأذن لى؟ ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه، أو يعنفه، أو يدفع به ليرجموه.. لكنه وهو المعلم أراد أن يبين له الحكمة من التشريع هنا، أراد أن يبين له كيف ذلك بطريقة يفهمها الرجل ويحسها، فقال له صلى الله عليه وسلم بهدوء: «أتحب أن يفعل ذلك

= ساءك لقاؤه «فإنك ملاقيه» قال الغزالي: هذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب لا يفارقك وهو الله ولا تحب من يفارقك وهو الدنيا فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا أذاه في فراقه بقدر حبه وأنسه، وأنس الواجد للدنيا أكثر من أنس فاقدها.

ومن كلام الحسن البَصْرِى رضى الله عنه: ما رأيت يقينا أشْبَهَ بالشك من يقين الناس بالموت وغَفْلَتهم عنه. قيل له: من شر الناس؟ قال: الذي يرى إنه خيرهم.

بأمك؟» فظهر الغضب على وجه الرجل وقال: لا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتحب أن يفعل ذلك بزوجتك؟» فرد الرجل بسرعة: لا.. لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وكلنا كذلك يا أخا العرب»(١).

وهكذا يبين له أن تشريع الله إنما وضع ليحمى أمه وأخته وزوجته مما لا يقبله أى إنسان ولو تذكر أى فرد هذا الحوار وهو يهم بمعصية الزنى، إذا تذكر أنه يكره أن يفعل ذلك بأمه أو أخته أو بزوجته لامتنع فورا عما ينوى أن يفعل، إذن فالتشريع حين يسمو بالغرائز ويضع القيود عليها إنما يضعها لحماية الفرد نفسه، لحماية أمه وأخته وزوجته من أى اعتداء وللدفاع عن عرضه هو، والإنسان يسعد بذلك، ولكنه في الوقت نفسه الذى يريد فيه تشريعا يحمى أهله من أى اعتداء من المجتمع، يقوم هو بالاعتداء على أهل غيره.

وهنا تظهر عدالة السماء لتقول لا، كلكم سواء أمام الله، وإذا كان الله بتشريعه قد حمى أهلك وعرضك، فإنه يحمى أهل وعرض الآخرين، فإذا انتهكته عاقبك، وإذا خالفته عذبك، لماذا؟ لأنك تريد الإفساد فى الأرض.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نهانا عن تناول سير الناس بالباطل والتجسس على أخبارهم، فقد نهانا عن ذلك ليحفظ سيرنا وأسرارنا، فأنا لى عورات لا أحب أن يطّلع عليها أحد، أنت لك عورات لا تحب أن يطلع عليها أحد، وكلنا يُسيؤه أن يطّلع على عوراته أحد، أو يتناوله أحد بالسوء وهو غير موجود، لا يستطيع أن يدافع عنه.

ولكن بعض الناس يريد وضعاً متميزاً، يحل لنفسه أن يسرق هو ولا يحل لغيره أن يسرقه، ويحل لنفسه أن يعتدى على أعراض الناس ولا يرضى ولا يقبل أن يعتدى أحد على عرضه ويريد أن يتجسس ويكشف عورات غيره ويتناوله بالسوء، فإذا تجسس أحد على عوراته هو أو تحدث عنه بالسوء، ثار وهاج وانفعل. والله يقول لا، كلكم أمامى سواء، عبيدى أنا خلقتكم وأعاملكم بلا تمييز، لا أحل لأحد ما أحرمه على الآخر مهما كان هذا ذا قوة وسلطان، والثانى لا حول له ولا قوة، ومن هنا فإننى عندما أحرم، أحرم عليكم جميعا وعندما أحل، أحل لكم جميعا، قويكم وضعيفكم فقيركم وغنيكم، وكل

---

(١) روى البيهقى فى الكبرى [٩/ ١٦١/ ١٨٢٨٨] عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه: أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذن لى فى الزنى. قال: فهم من كان قرب النبى صلى الله عليه وسلم أن يتناولوه. فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعوه. ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم: ادنه. أتحب أن يفعل ذلك بأختك؟ قال: لا. قال: فبابنتك؟ قال: لا. فلم يزل يقول بكذا وكذا كل ذلك يقول لا. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم فاكره ما كره الله، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك. قال: يا رسول الله، فادع الله أن يبغض إلي النساء، قال النبى صلى الله عليه وسلم: اللهم بغض إليه النساء.

من يحسب أن ماله، أو جاهه، أو سلطانه سيجعله مميزا عندى فهو واهم.

ذلك هو العدل الإلهى، وهذا هو منهج الله، لا يفرق بين أحد، ولا يحل لهذا ويحرم على ذلك، فهو فى تشريعه إنما يستهدف حماية المجتمع كله غنيه وفقيره، قويه وضعيفه.

إذن .. فما الذى يضعه الله، إنه يضع المجتمع الصحيح، يضع القواعد للمجتمع القوى ويهذب النفس البشرية ويبنيها من الداخل ويجعلها صلبة قوية عادلة، تحافظ على حقوق غيرها كما تحافظ على حقوق نفسها، إنه يلغى قانون الغابة السائد بين الحيوان، ويرقى بالإنسان إلى درجة الإنسانية، يسمو به ويميزه عن باقى مخلوقاته.

الله سبحانه وتعالى يضع لنا فى منهجه أساس بناء المجتمع الذى يسود الأرض، لماذا؟ لأنه الوحيد القادر على ذلك، وهو أعلى من البشر جميعا، وأعلم منهم، وهو الذى خلق هذا الكون، وسخر كل شىء فيه لخدمة الإنسان، سخر قوى أكثر كثيرا من الإنسان، فالشمس والقمر والأرض والنجوم سخرها كلها لخدمة الإنسان، وجعلها خاضعة له، تعطيه بدون أن يكون لها اختيار، وبدون أن تملك الإرادة فى أن تمنح وتمنع.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه القوى جميعا وسخرها لخدمة الإنسان وهى قوى يعجز الإنسان أن يخلق مثلها، فلا الإنسان يستطيع أن يخلق أرضا، أو سماء، أو شمسا، أو قمرا، أو غلافا جويا أو جاذبية أرضية، إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذه القوى الجبارة وسخرها لخدمة الإنسان، فهو قادر وحده على أن يرسم لنا الطريق الصحيح للحياة السعيدة على الأرض، وليس للإنسان مهما بلغ أن يتطاول ويقول أنا أَقْدَرُ من الله سبحانه وتعالى في رسم الطريق الصحيح للحياة على الأرض؛ لأن كلا منا مهما بلغ، عاجز أمام قدرة الله، ولأن كُلاً منا مهما حاول يريد أن يُعدل فى نفسه، والله لا هوى له؛ ولذلك فهو يحكم بالعدل ويضع الصراط المستقيم، وما دام الله قد قال، فهو أعلم منا جميعا؛ ولذلك فإننا يجب أن نتبع منهج الله بدون أن نقارنه بمنهج بشرى مهما كان.

على أننا حين نسأل بعض الناس من الذى خلق الحياة؟ يقولون الله، من الذى خلق السماوات والأرض؟ يقولون الله، ثم نسألهم إذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا لا تتبعون منهج الله؟ نجد بعضهم لا يجيب والبعض الآخر يحاول أن يضع منهجا بشريا مقابل منهج الله ثم يناقشك فيه، ونحن نقول لهؤلاء جميعا إنكم تناقضون أنفسكم إذا كان الله هو خالق الحياة وخالق الكون، وإذا كان الله قد وضع منهجا للحياة التى خلقها كما وضع قوانين للكون، أنترك هذا العطاء وتذهب إلى ما يقوله بشر عن هوى أو عن أى شىء آخر كيف أترك من يعلم، وأذهب إلى من لا يعلم، وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق.

بل إن الأساس فى اتباع منهج الله هو الإيمان، ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب عباده فى منهجه، يقول دائما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ويكررها فى آيات كثيرة من القرآن، لماذا؟ لأن الأساس فى اتباع منهج الله هو الإيمان بالله والرسل والملائكة والغيب، ذلك هو الأساس، أما غير ذلك فهو باطل، ولو أتيت بما طلبه الله منك ولكن بلا إيمان فعملك باطل.

ولنوضح هذه النقطة قليلاً، الله أمرنا بالتصدق على الفقراء، من فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإيمانا منه بالله ومنهجه فله الثواب، ولكن هب أن إنسانا يتصدق على الناس ليقال عنه: إنه جواد أو كريم، يأتي أمام القوم ويجمع الفقراء ويعطيهم المال ويتباهى بذلك ويتحدث عنه كثيرا ليقول الناس عنه: إنه رجل كريم، حتى إذا جاءه فقير بينه وبين نفسه طرده ولم يتصدق عليه، إنه يريد السمعة والشهرة ولا يريد رضا الله، هذا الإنسان لا يُثاب رغم أنه أتى عملاً من الأعمال التى حث عليها الله سبحانه وتعالى، وطلب منّا القيام بها، ولكنه أتاها بلا إيمان، أتاها وقلبه غير مؤمن بالله، لا ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، كذلك رجل يصلى أمام الناس فإذا كان وحده لا يصلى، هل يثاب على صلاته، أبداً.. مع أنه يفعل ما أمره الله به ولكن بلا إيمان.

والله سبحانه وتعالى أغنى الناس عن الشركاء؛ ولذلك إذا كان العمل لوجهه وإرضاء له سبحانه وتعالى فإنه يتقبله، أما إذا كان لإرضاء البشر فإنه غنى عنه ولا يتقبله، حتى ولو كان فيه جزء لإرضاء البشر أو لجاه الدنيا، فإنه لا يتقبله، فالله غنى عن العالمين والحديث الشريف يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] هو أكبر توضيح لذلك فالنية محلها القلب والله مطلع على القلوب، يعرف ما تخفيه الأنفس ويعلمه تماما، ولكن بعض الناس فى هذه الدنيا يعتقد أنه يستطيع أن يخدع الله، وهذه هى كارثة الإنسانية كلها.

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنين فى الوصول إلى وجود الله، محاولين استخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية التى أنزلها الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له، ذلك أن العقل له وظيفة، أو وظائف فى الحياة ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بدليل فوق طاقته، أو غير مستخدم الوسائل، أو الرسالات التى أنزلها الله لعباده، فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة فيما هو فى قدرة العقل البشرى، منذ يوم خلقه، إلى يوم القيامة ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا، بأن يقدموا للعقل البشرى ما هو فوق طاقته وهذا مستحيل.

ولقد قال لنا الله فى رسالاته: هذا هو الطريق إلى عبادتى، وشرحه لنا، وبيّن لنا

---

(١) رواه البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، ومسلم [١٥٥/١٩٠٧] وفيه: «النية» بدلاً من «النيات».

الثواب والعقاب، وهذا دليل قوى على وجود الخالق، ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام أو أى شىء غير الله، فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم أو تبين لهم، أو تعلمهم طرق العبادة، ولذلك لم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدى الناس، مع أن الناس عبدت الأصنام، والأحجار، والحيوانات، وكل شىء فى هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم.

وإذا حكّمنا المنطق وحده، والعقل وحده، فإن الاثنين معاً لا يقولان لنا: أن ندخل فى أشياء هى فوق قدرة الاثنين معاً، وبالرغم من ذلك، فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب، بطريق الجهل، وليس العدل.

ومن هنا فإننا لا نجد أى مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ماوراء المادة أو إلى العالم غير المادى، قد وصلت إلى النتائج نفسها التى وصلت إليها مدرسة أخرى بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة، أو مناقضة للمدرسة الأخرى، ولم تصل أى مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول.

على أن الإنسان فى صلته بالعالم الخارجى يتمتع بما نسميه بالحاسة، أو الحواس، فأنت ككائن بشرى حين تتصل بالعالم الذى يحيط بك، فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هى: أن يسمع الإنسان، ويرى، ويشم، ويلمس، ويتذوق هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجى، ونميز بواسطتها هذا العالم، بل ونعطيه الصفات التى نطلقها عليه، فصفات الألوان مثلاً نميزها بحاسة البصر، ونوع الطعام مثلاً تعطيه لفظ الحلو ولفظ المر، ولفظ الجيد، ولفظ الردىء، بحاسة الذوق، إلى آخر هذا الكلام، إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس، ولكن ماذا عن عالم ماهو داخل النفس البشرية، وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان، وما هو موجود فى داخله، هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس، أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات، وبعض الناس لفظ إلهام خاص وبعض الناس ألفاظا أخرى، ولكن المؤكد أن هذا الإحساس الذى يتم بالنسبة لما فى داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التى تتصل عن طريقها بالعالم الخارجى، وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى، يطلق عليها كما قلت إلهام أو بديهيات أو إحساس داخلى إلى آخر هذا.

ولنشرح الموضوع بشىء من التفصيل، نبدأ أولا بالأشياء التى يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التى تصله بالعالم الخارجى. فهو يرى ألوانا مختلفة، ويسمع أصواتا مختلفة ويلمس أشياء مختلفة، ويتذوق أطعمة مختلفة، ويشم روائح مختلفة، هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجى، أما اتصاله بما فى داخله فيأتى مثلاً عن طريق شعوره بالجوع، إننا لا نرى الجوع، ولا نلمسه، ولا نشمه، ولكننا نشعر به، وما ينطبق على الجوع، ينطبق على الأشياء الأخرى، مثل الحب والكره مثلاً، الإنسان يحب شخصا ما،

ويكره شخصا ما أو شيئا ما، من دون أن يكون لذلك سبب حسى معروف.

إذن.. فهناك أشياء فى داخلنا، تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا، هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما، ولكننا لا نرى بحواسنا، إن الإنسان مهما قال فى شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التى تسبب الحب، أو التى تسبب الكراهية فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس، التى يتصل الإنسان عن طريقها بالعالم الخارجى أو التى تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادى، ومن هنا فإن العلماء حريصون حينما يتحدثون عن الحواس، على أن يقولوا: إن هذه الحواس هى التى تُوصِّل الإنسان إلى العالم الخارجى وإن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور وإلهام، وأشياء أخرى فى داخله توصله إلى داخل النفس البشرية، وتؤثر فى هذه النفس.

والذى لا يخضع للمنطق، أننا نحاول أن ننكر أن فى داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التى توصله إلى العالم الخارجى، وأن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم، بينما ما بداخله يطرق بلا اتصال أو إحساس معين، الحقيقة أن الإلهام أو الشعور والإحساس بما فى داخل النفس البشرية يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم، تلك سنة الخلق فالطفل الصغير مثلاً يحس بالجوع والعطش، ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه فى الاتصال بالعالم الخارجى، وهو يحس بالحنان والدفء والحب والكره والقسوة، والرحمة، كل هذه الأشياء توجد فى داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى بينما الحواس تنتظر أسابيع أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل.

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية، نجد أن أقواها هو إحساس الإنسان بوجود الله، هذا الإحساس الذى قد يفتقر إلى شىء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته، والكون ووجوده وكل شىء من هذا النوع، ولكن هذا الإحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

فاسم الله مثلاً لا تدركه الحواس الخمس ؛ لأنه أكبر من قدرتها، ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان، حاسة غير مرئية، ومن هنا فإن كلمة «الله» التى هى فوق قدرة الحواس الخمس، نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها، ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية، بحيث يكون التصور هنا ليس غريباً تماماً، على هذه النفس بل هو معروف لها بشكل ما، قد لا نفهمه نحن، ولا نستطيع أن نحلله ولكنه معروف فعندما يذكر لنا أحد اسم الله.. فإن الذى يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة، هى التى خلقت هذا العالم، وأن هذه القوة خارج نطاق العقل، بل وخارج نطاق الحواس.

إذن.. كيف ندرك وجود هذه القوة؟ وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا؟ وهى خارج نطاق الحواس، وخارج نطاق العقل؟ هنا يأتى ما فى داخل النفس، وهو الإلهام أو الشعور

ليقول لنا: إن هذه القوة رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس، موجودة داخل النفس والنفس تفهم وتحس بوجودها.

وفى العصر القديم بدأ الفلاسفة، وخصوصا فلاسفة اليونان، يبحثون عما وراء المادة عما وراء هذا العالم المادى، عن الخلق. وعن القوة التى أوجدت هذا العالم، إلى آخر فلسفة اليونان القديمة عما وراء المادة، من الذى قال لهم: إن هناك شيئا وراء العالم المادى يجب أن يدرس، كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة، مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا إلا عن المادة، ونحن هنا لا نناقش الفلسفة اليونانية، وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها، أو فشلت، موضوع لا يهمنا، وإنما الأمر الذي يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة، وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم ليست أشياء حواسية، أى لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك.

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ، منذ بداية خلقه، وهو يبحث عما وراء المادة، يبحث عنه بطرقه المختلفة، وهو أحيانا يتخذه سبيلا آخر لإظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التى هى وراء المادة. ولكن المهم فى هذا كله أن هناك شعوراً داخليًا فى النفس البشرية، يقول لنا: إن هناك شيئا وراء الطبيعة، إن هناك قوة ما وراء هذا العالم وأن هذه القوة، هى قوة عظيمة وخارقة، هناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية بوجود الله، تلك القوة التى هى وراء هذا الكون، هناك شىء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى يرونه وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية.

ولكن العالم المادى نفسه الذى نعيش فيه، لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور، لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط إن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا، إذن لابد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادى هى التى وضعت فينا هذا التصور.

وعلّمتنا أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه، ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة، ولو لم يكن هناك شعور فى داخلنا، وإحساس قوى بوجود هذه القوة لما بحثنا، ولما دخل كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية.

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها ؛ هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله، أو المرحلة التى يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون، لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره، فالإنسان عادة لا يبدأ فى التفكير فى مثل هذه الأمور أو التحدث عنها بعمق بدون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل ؛ ليكون لديه نضج العقل الكافى لمناقشة أمر عميق كهذا، والسؤال الذى يجب أن يطرح هنا، هو: بأى منطق عبد هؤلاء الناس الله، قبل الوصول إلى هذه السن، وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التى تحتاج إلى عقل ناضج، وإلى علم ودراسة وتأمل، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئا وراء المادة، ولكننا نجد العقول البسيطة التى لم تقرأ

كتابا واحدا، ولم تدرس ما هى المادة، تعرف أن الله موجود وتعبده بفهم، ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الإطلاق، يتقبلون وجود الله، ويقومون بعبادته، بدون أن يحسوا أن هناك تناقضا بين الكون الذى يعيشون فيه وبين وجود الخالق سبحانه وتعالى، بل إن أكثرهم يحس بإحساس فطرى غريب بأن الله سبحانه وتعالى، ووجود الكون شيئان لابد منهما ووجودهما حقيقة داخل النفس.

ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله، فما الذى أوجد هذا القلق فى العالم؟ وما الذى أوجد المذاهب المتضاربة؟ ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله؟ وبعض الناس أن ينكر وجود الله؟ ما سبب هذا التضارب العجيب الذى نراه؟ ما دامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة مايؤكد وجود الله؟

الحقيقة أن الذى صنع هذا هو هَوَى النفس، وكل من حاول أن يخوض فى هذا الموضوع وضع الخيال مكان المنطق، ووضع التصور مكان التفكير، ومن هنا فإن العقل البشرى فى محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته، لم يستطع أن يقدم ما يريده، فانطلق إلى الخيال.

وأريد هنا أن أضرب مثلاً يوضح ذلك ؛ إذا أقفلنا باب هذه الحجرة التى نجلس فيها ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذى طرق الباب، هذه قدراتنا وهذه نقطة لا خلاف عليها، فإذا بدأنا نسأل أنفسنا، من الذى طرق الباب؟ هل هو رجل، أم امرأة، قصير أم طويل، أبيض أم أسود، عربى أم عجمى، هنا يبدأ الخلاف، لماذا؟ لأننا لا نحكم المنطق والعقل، ولكن نحكم الخيال.

وهذا هو ما حدث بالنسبة لعدد من البشر، لقد أرهقوا أنفسهم فى تخَيل الله، مع أن هذا التخيل خارج عن نطاق العقل البشرى ومستحيل ؛ ذلك لأننا لكى نتخيل شيئا ما، فإن هذا الشىء يجب أن يشبه شيئا فى قدرات العقل، فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معينا لإنسان، ولا يستطيع أن يفهمك، تقول له: إنه شىء يشبه الكرة، وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشرى إلى داخلها، فاستطاع الإنسان أن يتصور ذلك الشىء، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء، إذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذى لا يمكن أن يدركه العقل، ولا يخضع لمنطق، ومن هنا فإننا لو قطعنا المنطق لما اختلفنا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه وعن عبادته، ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك، إلى أشياء ليست فى قدرة العقول البشرية فنضيع، ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله، لكان فى ذلك المنطق السليم.

إذن.. فإن ما يؤكد وجود الله، أنه موجود فى قلوبنا بالفطرة، وطريقة عبادة الله وطاعته وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود فى رسالاته التى أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين، فالمنطق يقول: إننا نتبع هذه الرسالات، والخيال يقول: إننا نبحث عما فوق

قدرات العقل، وننوه مع أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر، هى فى حقيقتها أكبر دليل على وجود الله.

على أننى أريد أن أنبه إلى كلمة هامة قد وردت فى الآية الكريمة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا فى الأرض واستخدم بدلا منها لفظ: ﴿ ٱلْءَافَاقِ ﴾، ونحن نعلم أن القرآن - وهوكلام الله سبحانه وتعالى - غاية فى الدقة وفى اختيار اللفظ الذى يطابق المعنى تماما.

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه سيكشف لنا فى المستقبل عن آياته فى الآفاق التى لا نعرفها حتى الآن، أى إن الله سبحانه سيكشف لنا أكثر من آية ليست فى الأرض فقط، بل فى الآفاق المحيطة بالأرض، ولعل وصول الإنسان للقمر ومحاولة وصوله للمريخ وكل ما يحدث من محاولة الكشف عن أسرار الكون فى الآفاق المحيطة بالأرض، يأتى مصداقا لهذه الآية الكريمة، ولكن بعض الناس يغتر بالعلم، ناسيا أو متناسيا، أن هذا العلم قد خرج إلى البشر بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ولكن بعض الناس يحاول أن يفلسف العبادات بقدر طاقة العقل، فيأتى المستشرقون مثلاً يحاولون التشكيك فى القرآن الكريم فيقولون: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٥]، ومع ذلك يأمرنا أن نتجه إلى القبلة فى صلاتنا وهى بيت الله الحرام وتكون الصلاة باطلة إذا لم نتجه إلى القبلة

إذا كان الله سبحانه وتعالى فى كل مكان، فى المشرق والمغرب، وأينما ولَّيْتَ وجهك فَثمَّ وجْهُ الله، ألا يتعارض ذلك مع وجود مكان محدد يجب أن نتوجه إليه فى الصلاة إلى الله سبحانه وتعالى.

فالقضية هنا قضية إيمانية كبرى، أساسها الاعتراف بالألوهية، وبأن الله سبحانه وتعالى علمه فوق كل علم، وأنه مادمت قد آمنت بالله، وأسلمت بهذه القوة الكبرى فإن الله سبحانه وتعالى بحق الألوهية يختار لك الطريق الأحسن والأصوب، وأنت تتبع هذا الطريق لأنه جاء من الله سبحانه وتعالى، هذه هى قضية الإيمان والتسليم؛ ذلك كما قلنا: إن القدرة هنا ليست متساوية، والعقل ليس متساويا.. وشتان بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة العقل البشرى، والإيمان بالله أساسه التسليم بألوهيته، ولهذا أتى الله سبحانه وتعالى بمسألة القِبْلَة.

مكان القبلة لا يكلف المؤمن شيئا، فالتوجه إلى المشرق أو التوجه إلى المغرب،

أو التوجه إلى اليمين أو إلى اليسار، كل هذا لا يكلف المؤمن مشقة فى صلاته، فهو لا يتحمل مشقة إذا توجه إلى المغرب بدلاً من المشرق، والجهد نفسه الذى سيبذله فى التوجه، جهد متساو.

نأتى إلى الآية الكريمة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز عن القبلة: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شىء هام جدا، وهو استخدام حرف «السين»، وحرف السين لا يُستخدم إلا فى شىء مستقبلى، أى شىء سيحدث فى المستقبل ولا يمكن أن أقول: سيفعل فلان كذا ويكون قد قام بالفعل، بل لابد أنه سيحدث فى المستقبل، أى إنه لم يتم، ولكنه قادم.

يأتى الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ويقول لنبيه الكريم: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ١٤٢]. ومعنى أنهم سيقولون إنهم لم يقولوا بعد، ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون، وهؤلاء الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وإذاعة الأباطيل عنه، يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، يعنى أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء، ثم يخبر نبيه والمؤمنين أن هؤلاء السفهاء سيقولون: ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تحدّى هؤلاء الكفار فى أمر اختيارى مستقبلى لم يحدث، وقال: إنهم سيقولونه، وأن هؤلاء الذين سيرددون هذا القول هم سفهاء وهنا المعجزة، فالأمر هنا اختيارى يمكن للكفار أن يفعلوه وألا يفعلوه، ويزيد على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء، والقرآن كلام الله المُتعبّد به إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ولا تبديل، ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء الناس حينما سمعوا هذه الآية لم يسألوا عن تغيير القبلة وتجنبوا كل هذا؟

إذن.. لكانوا قد طعنوا القرآن وطعنوا الدين فى قضية إيمانية كبرى، ولكنهم جاءوا وقالوا: إن محمداً عليه السلام قال فى كلام يوحى إليه من الله: إنه سيأتى أناس لقبهم بالسفهاء ويسألون ما الذى ولّى المسلمين عن قبلتهم؟ ولكن أحداً لم يسأل ولم يُثر هذا الموضوع لتعلموا جميعاً أن هذا الكلام غير موحى به، وأن هذا الدين من عند محمد.

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل، وهو الفاعل، يجعل على يد خصوم

القرآن وخصوم محمد عليه الصلاة والسلام ما يثبت صدق رسالته ويؤكد حقيقتها فيقول سبحانه وتعالى: إنه سيأتى سفهاء من الناس ويسألون عن سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وأنا أنبئكم عنهم قبل أن يأتوا، وأقول لكم ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به، ثم أعلن أن هؤلاء الناس هم سفهاء، ويأتى فعلا هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء به القرآن، مثبتين صدق كلام الله، بينما هم يحاولون أن يضلوا عن دينه، وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق هذا الكتاب الكريم، ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين مثبتين له بأمر الله وهم لا يملكون فى ذلك اختيارا.

إذن.. فتغيير القبلة فيه معجزة إيمانية كبرى، على أن الله سبحانه وتعالى، قد تحدّى خصوم هذا الدين فى أمر اختيارى، أما قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فهذا إعجاز آخر على أن الإسلام سينتشر فى بقاع الدنيا كلها، وأن المصلين فى كل مكان سيتجهون اتجاهات مختلفة، فهذا سيتجه شرقاً إلى القبلة، وهذا سيتجه غرباً، وذاك شمالاً وذاك جنوباً، ولو أنهم جميعاً يتجهون إلى مكان واحد وهو بيت الله الحرام، إلا أن بعضهم سيتجه شرقاً، وبعضهم غرباً، وبعضهم شمال شرق، وفى كل الاتجاهات هم يتجهون إلى بيت الله الحرام، كما أن الصلاة إذا تعذر على الإنسان معرفة القبلة، يمكن أن تكون صحيحة باتجاهه إلى المكان الذى يعتقد أنه الاتجاه إلى بيت الله، كذلك تكون الصلاة فى الطائرة، أو الباخرة مع أن الطائرة أو الباخرة قد تُغيّر اتجاهها أثناء الصلاة والمقصود هنا بالقبلة هو وحدة الهدف للمسلمين وهو التوجه إلى بيت الله الحرام، والمقصود أكثر هو التسليم لله سبحانه وتعالى بالألوهية فأنت فى الحج مثلاً تُقبّل حجراً، وتَرجم حجراً، ولا تُخضع ذلك إلى منطق العقل المحدود، ولكن تُخضعه إلى أمر الله سبحانه وتعالى، وأن له حكمته فى كل شىء قد أمر به، فأنت فى هذه الحالة أحد ثلاثة: إنسان مؤمن بالله تتبع ما يقوله الله بحق الألوهية، وبحق عبوديتك له، ولذلك نجد الخطاب فى الطاعات بالنسبة للمؤمنين فى القرآن الكريم يتعلق بالطاعات فلا تقول: يا أيها الناس لا تفعلوا كذا وأفعلوا كذا؛ لكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والخطاب هنا للمؤمن الذى يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته، وهو يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى من مرضه، ولا يناقشه فى هذا الدواء وذاك، ولا فى النظام الذى يتبعه فى العلاج لأن المفروض أن علم الطبيب أكثر كثيراً من علم المريض، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر.

أما الكافر أو غير المؤمن فهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب، تماماً كما يمزق أوامر أكبر طبيب يعالجه ويتبع هواه فيشقى، ولكن أحداً لا يلومه؛ لأنه ليس بعد الكفر ذنب، وإذا لم تؤمن فأفعل ما شئت.

أما الثالث فإنسان يعبد عقله وهو يريد أن يصل بعقله إلى منزلة متساوية مع علم الله سبحانه وتعالى، وهذا يضل ويشقى ولا يصل إلى شيء ؛ لأن علم الله لا يحيط به أحد.

هذه قضية إيمانية كبرى، ولقد أراح الله العقول وجنبها كثيراً من الشقاء بأن أعطاها من علمه خلال رسالاته ما يبين لها طريق الحياة الطبيعية على الأرض، ولكن بعض هذه العقول يأبى أن تشمله رحمة الله، فيُتعب نفسه ويتعب عقله ولا يصل إلى شيء.

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بقضية الإيمان الكبرى وهي التسليم لله في العبادة والتكاليف ولم يأتِ بها في أي مجال آخر، أي إن الله سبحانه وتعالى، أراد أن يكون الإيمان امتحاناً للنفس البشرية وتسليماً لله سبحانه وتعالى فقال الله جل جلاله: إذا أردت أن تعبدني وتُؤمن بي، وأنه لا إله إلا أنا فهذا هو الطريق، افعل كذا ولا تفعل كذا، وفي هذا اختبار لطاعتك وإيمانك، ومدى استقرار هذا الإيمان في القلب، فإذا كنت آمنت بي ربا وخالقا فاعبدني كما رسمت لك الطريق، وأنا حين أعبد الله أعبده كما يريد هو أن يُعبد، ولا أضع من تشريعي أنا وعقلي طريقاً أعلم به الله سبحانه وتعالى كيف يُعبد، فهو الله وأنا العبد.

ولعل تغيير القبلة امتحان للإيمان، فالاتجاه إلى المشرق أو المغرب لن يكلف المؤمن جهداً ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولكن الذين يناقشون قضية الإيمان لا يقدمون الدليل أو الحجة على ما يقولون، ويتجنبون مناقشة جوهر الرسالة أو الطريق الذي رسمه الله لعباده، فيأتي الواحد منهم ليقول: إن هذا القرآن ليس منزلاً من عند الله. وهذه قضية لا يستطيع أن يثبتها، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا، وهو لم يأت بعلمه الإنكاري عن طريق يقيني، بل أتى عن طريق هوى في نفسه، يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله إلى شريعة أخرى تعطيه فوق ماله من حقوق وتسلب الآخرين من حقوق، على أن الذين يجادلون ويحاولون أن يخدعوا الناس، يأتون بأشياء كثيرة لا تمت للعلم بصلة، نجد واحداً يقول: إن أصل الإنسان قرد مثلاً. هذا شيء مبني على الظن، فالرجل الذي قال هذا الكلام لم يشهد قرداً تحول إلى إنسان ولا يستطيع أن يحول قردا إلى إنسان، ويجب حين نبدأ المناقشة معه، نقول له تعال: هل شهدت قردا تحول إلى إنسان؟ سيقول: لا. هل شهدت خلق الإنسان؟ سيقول: لا. هل شهدت خلق القرد؟ سيقول: لا. هل تستطيع أن تحول قردا إلى إنسان؟ سيقول: لا. إذن.. على أي أساس بنيت نظريتك؟ سيقول: بالملاحظة والتخمين.

حينئذ نناقشه بالملاحظة والتخمين ؛ نظرية الارتقاء التي يدعونها مبنية على التخمين

والباطل، وإلا فليقولوا لنا: هل يستطيع إنسان أن يميز بين عصفور وعصفور آخر، أو بين حصان وحصان آخر من الجنس نفسه، أو بين قرد وقرد؟ الجواب طبعا لا. ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر رغم أننا مخلوقون بالشكل نفسه، فكل منا له عينان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان إلى آخر ذلك، أى إن الشكل واحد مثل الأمم الأخرى من الناحية الحيوانية، ولكن كل إنسان له صورة تميزه عن ملايين البشر، فأنت حين ترى إنسانا بين الملايين التى تسكن الكرة الأرضية تقول هذا على وهذا إسماعيل وهذه فاطمة، وهذا أبى وهذه أختى إلى آخر ذلك، مَن الذى ميّز الإنسان عن أى إنسان آخر؟ إذا كان الخلق قد تم بالارتقاء من الناحية الحيوانية، من الذى وضع هذا التمييز؟ الذى ميّزه هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التى رسمها له، وهو مميز فى الدنيا ليُحاسب فى الآخرة، فلو أن الإنسان غير مميز كانت حياته على الأرض مستحيلة التنظيم، ولكان من غير الممكن أن يكون شهيداً على نفسه فى الآخرة، ولقد وضع الله التمييز فى الإنسان بإعجاز شديد حتى إن بصمة الإصبع لا تتشابه بين ملايين الخلق، منذ بداية الدنيا إلى نهايتها، والإنسان صورة لا تتكرر، ولعل أكبر دليل على ذلك صور وتماثيل الملوك التى تركوها فى الأرض وماتوا منذ مئات السنين، فأنت تستطيع أن تميز صورة رمسيس وكليوباترا ونابليون وغيرهم عن بقية الأحياء، رغم أنهم ماتوا ورحلوا عن هذا العالم فالإنسان قائم بذاته لا يتكرر رغم تكرار الخلق، ليكون الحساب فى الآخرة حيث يعرف الناس بصورهم، هذا التمييز الدقيق المعجز لا يمكن أن يأتى من خلق نشأ بالارتقاء أو بالصدفة، ولكنه إعجاز الله وقدرته، وآياته التى وضعها فى الإنسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

بل إن العقل البشرى الذى وضعه الله فى مساحة صغيرة جدًا مكون من ألف مليون خلية عصبية، هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع، وتعطى الإشارات

هناك ثلاث آلاف شُعيْرة تتذوق الطعام لتُعطيك طعم الحلو والمر، وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام، وإذا اقترب شىء محرق من جسدك صرخت الثلاثون ألف خلية فى مخك: «احترس»، وأشعرتك بالنار التى تقترب منها، هذا الإعجاز لا يمكن أن يتم بالارتقاء أبداً والطفرة الرهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات، لا يمكن أن تكون إلا من صنع قدرة الله وقدرة الله سبحانه وتعالى هى التى أخذت حفنة من تراب ثم قالت: ﴿ كُن ﴾، فكان هذا الإنسان الذى يعيش فى الأرض، ويبنى ويعمر، ويصعد إلى القمر، انظر إلى كل ما يستطيع أن يفعله البشر وكل ما سيستطيعون أن يفعلوه فى المستقبل، تعرف ماذا يحدث عندما تمس قدرة الله حفنة من تراب.

على أن النفس البشرية فى أعماقها لغز حتى على صاحبها، فيها ملكات لم يكشف

عنها الله سبحانه وتعالى للإنسان حتى الآن، فالإنسان فى كثير من الأحيان لا يفهم نفسه، ولا يصل إلى أعماقها وأسرارها، والسلوك البشرى لا يزال لغزاً أمام معظم الباحثين، وإذا كانت هناك قوانين تحكمنا ونعرفها، فهناك قوانين كثيرة لا نعلم عنها شيئاً تحكم معظم تصرفاتنا، فالإنسان عندما يحب مثلاً، لا يعرف لماذا يحب، فقد يكون الشخص الذى نحبه لا يستحق هذه العاطفة، وقد يكون إنسانا بالغ السوء، وفيه من الصفات ما نكره ومع ذلك نحبه، فالحب والكره عاطفتان لا يعرف العقل البشرى قوانين لهما، بل إن فيهما ما هو ضد المنطق والعقل فى كثير من الأحيان، فالنفس البشرية فى عواطفها مزيج غريب من المنطق واللامنطق، والعقل واللاعقل، والتضحية والأنانية، وهى لغز وستظل لغزا.

وإذا كانت النفس البشرية لغزا لا نستطيع أن نفهمه، فإن فيها فطرة نحس بها جميعا تلك الفطرة هى صلة هذه النفس بالله، فالله يوجد فينا بالفطرة، يعرفه الطفل والشاب والكهل والمثقف والجاهل، وهؤلاء جميعا قد لا يستطيعون أن يشتركوا فى استيعاب شىء واحد ولكنهم جميعا يفهمون كلمة الله، وتهتز نفوسهم عند سماع كلام الله رغم الفوارق بين العقول، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات فى النفس البشرية لا نعرفها نحن ولكن الله سبحانه وتعالى عليم بها، وأسعد النفوس هى النفس المطمئنة تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة، اطمأنت إلى قوله وعدله، وقوته وقدرته وعلمه ووجوده اطمأنت إلى أن الله حق وأن الآخرة حق، فعملت لكل عمله واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح، واطمأنت إلى أن قضاء الله خير، ما أعطى فهو خير وما منع فهو خير، فالمنع رحمة ؛ لأنه بُعد عن الشر أو حِفْظ منه، قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير فى المنع وخير فى العطاء، وهى تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأن الله يحب عبادة المؤمنين، وأنه رحيم فى قضائه مع النفس المؤمنة، وأنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله، ولا جبار يعلو على قدرة الله ولا مفسد يفلت من عقاب الله.

ولكننا فى كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظار آخر، فنحن نرى فيما يحدث إجحافا وظلما، ونحس بأن المظالم تملأ الدنيا، ونسأل: أين عدل الله؟

ولكننا فى الحقيقة تضيق صدورنا لأن جزءا من الحكمة مخفيّ عنا، ولقد شاءت رحمة الله أن يفسر ذلك لنا لنرى الفرق فى كثير من الأحيان بين الظاهر والحقيقة، وهذا موضوعنا على الصفحات التالية عن خواطرى حول سورة الكهف.

خواطر حول سورة الكهف

عندما نتحدث عن معانى القرآن الكريم، فإننا فى كثير من الأحيان يجب أن ننتبه إلى الحكمة من بعض الآيات التى نقرؤها ؛ ذلك أننا نمر أحيانا على أشياء من دون أن ننتبه إلى المعنى الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها، وأمرنا بأن نتدبر فيه.

على أن ذلك لا يعنى أن نحاول تحميل القرآن أكثر من معانيه، وبعض العلماء - اندفاعا مع العصر، أو محاولة فى إثبات إعجاز القرآن - يقومون بربط بعض النظريات العلمية التى تذاع والتى تبهر الناس، يحاولون ربط هذه النظريات ببعض آيات القرآن الكريم.

والخطورة هنا أن النظرية العلمية تحتمل الخطأ والصواب، فماذا يمكن أن يحدث إذا حملنا آيات القرآن بعض النظريات، ثم تبين بعد ذلك أن هذه النظريات غير صحيحة ماذا يكون الموقف، إن الحماس لا يجب أن يأخذنا إلى الحد الذى نحاول فيه أن نجد فى القرآن الكريم ما يتوافق مع نظريات العلم الحديث.

والذى أحب أن أبينه، أن القرآن الكريم، كتاب دين وليس كتاب علم، علم أرضى بمعنى أنه لا يشرح لنا نظريات الهندسة، أو قوانين الطب أو غير ذلك، بل إن الله سبحانه وتعالى فى أول كتابه العزيز قد حدد الهدف، وقال فى أول سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [البقرة].

ومن هنا وفى أولى آيات سورة البقرة، أولى سور القرآن، حدد الله سبحانه وتعالى هذا الكتاب وأنه الهداية لمن آمن.

كانت هذه مقدمة لابد منها، عن خواطرى حول سورة الكهف. فإن الذين يبحثون فى القرآن الكريم، يجب أن يتأملوا فى كلام الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى قد وضع فى آياته من الأسرار ما يحتاج منا إلى التأمل وعدم المرور عليها مروراً عابراً وإذا كنت سأتحدث اليوم عن خواطرى عن سورة الكهف، فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع فى هذه السورة أشياء كثيرة يجب أن يقف عندها العقل، وقبل أن نبدأ الحديث عن بعض آيات سورة الكهف، فإننا نتوقف كثيراً عند اسم السورة، الاسم هو: سورة الكهف ما هو الكهف؟ الكهف كما نعرفه هو فجوة داخلة فى الجبل، ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق فى أماكن كثيرة كهوفا، لنعرف ونحس ونرى ونشاهد الكهف.

إذن.. فالكهف هو فجوة داخلة فى الجبل، هل تستطيع وأنت خارج هذه الفجوة أن تعرف ما بداخلها؟ والجواب: طبعا لا. لابد أن تبحث قليلاً وتكشف حتى تصل إلى ما هو داخل هذا الكهف وتعرفه معرفة حقيقية، ومن هنا فإن اسم السورة لا يجب أن يمر علينا بدون أن نفكر فيه، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جاء فيها بكهوف معنوية يعنى أشياء تنبئنا بما يستتر عنا من حقائق، فى الكون، وفى أحداثه، فمثلاً نجد أن قصة موسى عليه السلام مع الخضر، أو مع الإنسان الذى آتاه الله العلم، هى قصة المراد منها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر، فإغراق السفينة التى يملكها مساكين، كان عملاً إذا نظرنا إلى ظاهره نجده شرا، ولكن حقيقته كانت خيراً؛ لأنها أنقذت سفينة المساكين من ملك ظالم، كان سيغتصبها، وقَتْل الطفل ظاهره شر، ولكن باطنه هو حفظ للأم والأب الصالحين، ورزقهما بطفل تقى، يحفظ لهما صلاحهما، ولا يرهقهما طغياناً وكُفْراً، وبناء الجدار لأهل قرية من اللئام الذين رفضوا أن يطعموا شخصين غريبين جائعين، هو عمل لا يتفق مع منطق الخير، ولكن الحقيقة أن هذا الجدار قد بنى ليحفظ كنزا لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحاً وتوفى، ليحفظ لهذين الطفلين كنزاً تحت هذا الجدار، حتى يبلغ الطفلان أَشُدَّهما ويستخرجا كنزهما، ولو تهدم الجدار لأخذ أصحاب القرية من اللئام الكنز، وحرم الطفلان منه.

على أننى سأتحدث عن هذا بالتفصيل، فتلك الآيات لا يمكن تناولها فى سطور بسيطة كهذه، ولكننى أردت أن أشير لسبب هام وهو معنى الكهف، فالله يريد أن يخبرنا فى هذه السورة بحقائق مستورة عنا، قد لا يصل إليها العقل البشرى، وهو يريد أن يخبرنا أيضاً ألا نأخذ الأشياء بظاهر الأمور، فالذى يبدو لنا شرًا قد يكون فى قضاء الله خيرا، والعكس صحيح.

والكهف الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة، كان كهفاً حسيًا أيضاً، أى: كهفا حقيقيا التجأ إليه فتية مؤمنون، وكان هذا الكهف ستراً لحق إيمانى، خائف على نفسه من طغيان باطل كافر، على أننى سأبدأ فى خواطرى بثلاثة أشياء تبين المعنى وهذه الأشياء الثلاثة، كانت مستورة عن علم الإنسان وقت نزول القرآن، ثم كشفها الله للعلم البشرى بعد نزول القرآن.

فى قصة الإسكندر ذى القرنين، ونحن لن ندخل هنا فى مناقشة حول من هو الإسكندر وتحديد شخصيته إلى آخر هذا، فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص أن يحدد شخصاً بذاته؛ لأن التشخيص قد يفسد القضية، فإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلاً، ومن هو فرعون موسى، ومن هو قارون، إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن، فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها، ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان، وهى قصص مضروبة لكل

عصر، والعبرة هنا تأتى بالشيوع، أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا.

فعندما يضرب الله مثلاً بالذين كفروا، امرأة نوح، وامرأة لوط، فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط، وإنما يعنى كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخونه، وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون، فإنما يعنى كل امرأة مؤمنة زوجها كافر، وهذا يتكرر فى كل عصر، والحادثة الوحيدة التى لن تتكرر هى قصة مريم، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ [التحريم: ١٢]؛ أى إنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر.

إذن.. فالتشخيص فى القرآن الكريم، ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص، ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذى القرنين، نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شىء.. وآتاه من كل شىء سبباً، ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذى القرنين، ومن هو إلى آخر ما يراد به البعد عن الحكمة، إلى فرعيات ليست مطلوبة.

نأتى إلى آية هامة فى قصة ذى القرنين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكهف: ٩٠].

وتتوقف القصة عند ذلك وتنتقل إلى شىء آخر، هنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية، سوى أن ذا القرنين قد وصل إلى قوم لم يجعل الله بينهم وبين الشمس ستراً.

بعض الناس يمر على هذه الآية بدون أن يتنبه إليها، ولكن العقل يجب أن يقف هنا ليسأل، ما هى الحكمة من هذه الآية؟ فإذا فكرنا فيها، نجد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هناك قوما لم يجعل لهم من دون الشمس سترا.

ما معنى هذا الكلام، ما هو المقصود من أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم من دون الشمس سترا، هل المفروض أن هذه الأرض قاحلة، ليس فيها شجر يستر الناس عن الشمس، أم المقصود أنه ليس لديهم مساكن يدلفون فيها لتسترهم من الشمس، أم المفروض أنهم عرايا مثلاً، ليس عندهم ملابس تقيهم الشمس.

كل هذا قد يخطر على العقل البشرى، ولكن الحقيقة أن كل هذه الأشياء لا تستر الشمس، فالشمس موجودة خارج المنزل ولو جلست فيه، كما أنها موجودة خارج ظل الشجرة ولو جلست تحتها، كما أنها موجودة حتى ولو ارتديت الملابس التى تقيك من الشمس، إذن.. فكل هذا قد يبعد الشمس عنك، ولكنه لا يسترها، أى لا يخفيها.

ولكن ما الذى يستر الشمس، الذى يجعلها تختفى، تغيب، تذهب، ما الذى يستر الشمس فى أى وضع من الأوضاع، بحيث لا تجدها، إنه الظلام، إنه الليل، الليل هو الذى يستر الشمس، فلا تجد أشعتها فى أى مكان، ولا تنظرها أينما كنت، وكيفما كنت ولو صعدت لأعلى مكان، ولو خرجت إلى الشارع، فإنك لا ترى الشمس؛ لأنها مستورة عنك بالظلام.

هنا يجب أن نتوقف قليلاً، اللّه سبحانه وتعالى فى الآية الأولى وضع لنا القوانين التى يجب أن يسير عليها الممكن فى الأرض، وقال لنا: إننا يجب أن نضيف إلى الأسباب التى يُعطيها اللّه سبحانه وتعالى أو يُمكننا منها، ثم بعد ذلك عندما بلغ ذو القرنين بين السَّدَّيْن وجد يأجوج ومأجوج، إنهم قوم مفسدون فى الأرض، ولكنه فى الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾.

لم يرد اللّه سبحانه وتعالى شيئا مما قام به ذو القرنين عندما بلغ هذه الأرض، ولما كان القرآن الكريم كل حرف فيه بميزان دقيق، فلابد أن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا شيئا فى هذه الآية الكريمة وحدها، إذن ما هى الحكمة المستورة فى هذه الآية الكريمة؟

بعض الناس يمر على هذه الآية ولا يسأل نفسه هذا السؤال، اللّه سبحانه وتعالى جعل لذى القرنين عملا حين بلغ مغرب الشمس، وجعل له عملا حين بلغ بين السدين، ولكن فى هذه الآية الكريمة لم يجعل له عملا، إذن لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾.

ومن هنا فإن معنى الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾.

إن الإسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة، أى إنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية، بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام، وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم تغيب عنها الشمس ستة شهور فى العام، فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ستة شهور، وعن القطب الجنوبى مدة ستة شهور، فكأن اللّه تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى يخضع لها باقى أجزاء الأرض، وإنما تشرق الشمس عليها بدون أن يسترها الظلام لفترة طويلة.

على أن لنا عودة فى الحديث عن ذى القرنين والآيات التى ذكرت عنه فى القرآن الكريم ولكن فلنبدأ الخواطر حول سورة الكهف من أولها.

كما قلت، الكهف فجوة داخلة فى الجبل، لا بد أن نبحث قليلاً ونكشف ما هو داخل هذا الكهف ونعرفه، والكهف الحسى الذى ذكره اللّه أولاً فى السورة هو كهف الفتية الذين آمنوا بربهم، هؤلاء الفتية كانوا مؤمنين، خافوا على أنفسهم من طغيان باطل كافر فانتقلوا إلى كهف يختبئون فيه حتى لا يدفعهم هؤلاء الكفار إلى عدم الإيمان ويعودوا بهم إلى الكفر، واللّه سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا، أنه مهما ظهر الباطل وطغى، فإن الإيمان موجود فى الدنيا، قد يكون مستوراً عنا، ولكنه موجود لا ينتهى أبداً.

هذه هى الآيات الأولى من السورة، ولكننا عندما نتأمل، فإننا نجد فى هذه الآيات

عدداً من المعجزات القرآنية، التى يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بها، وأن يوجه نظرنا إليها.

يقول الله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١].

وهذه هى المعجزة الأولى، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الشىء الذى لا ينام فى الحواس هو الأذن، أنت حين تُغمض عينيك لا ترى، ولكنك لا تستطيع أن تُغمض أذنيك أبداً، الأذن تظل مفتوحة تؤدى وظيفتها سواء أردت أو لم ترد، إذا كنت لا تريد أن ترى شخصا، فأنت تُغمض عينيك فلا تراه أو تشيح عنه بوجهك، ولكنك إذا لم ترد أن تسمع صوت الشخص نفسه، فأنت لا تستطيع أن تغمض أذنيك.

وإذا كان هناك إنسان نائم، فقد تمر قرب عينيه فلا يستيقظ، ولكنك متى أحدثت صوتا بجانب أذنه فإنه يستيقظ على الفور، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا:

أولاً: أن الأذن لا تنام أبداً.

ثانياً: أنها أداة الاستدعاء.

ثالثا: أنك لو فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا، فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين طويلة، بدون أن يحسوا بما حولهم، فإنه لم يأخذ أبصارهم، ولم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلا كحركة قلب النائم، ولكنه ضرب على آذانهم، وكان هذا كافياً جدًا، ليفصل بينهم وبين الدنيا تماماً طوال فترة نومهم، والأذن هى أداة الاستدعاء فى الآخرة.

ثم ننتقل إلى آية أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: ١٨].

العقل البشرى يجب أن يتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هذا الكلام، وما هو الداعى لأن توضع هذه الألفاظ فى الآية مع أنها لو حذفت لا تُغيّر من السياق كثيراً؟ كما قلت وأقول دائماً، إن لكل كلمة فى القرآن الكريم معنى معجزا، بعضه وصل إليه العقل، والبعض الآخر سيصل إليه العقل بعد سنوات طويلة، إذا تأملنا فى الآية الكريمة: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

ونجد أن الله سبحانه وتعالى سيبعث هؤلاء الفتية كآية من آياته، أى سيعيدهم مرة أخرى إلى حياة البشر، ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرقاد الطويل، فنجد أننا الآن إذا أصيب أحدنا بمرض يتطلب رقادا طويلا، فإن الأطباء يحذرون من أن المريض يجب أن يقلّب يمينا ويسارا حتى لا يصاب جسمه بالقروح، أو تحدث له انسدادات فى الدورة الدموية فى القدمين، أو فى الجزء الأسفل من الجسم.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الرقاد الطويل يجب أن يتم معه تقليب للإنسان الراقد، بحيث لا يرقد على جزء واحد من جسده فترة طويلة، فيصاب بأضرار بالغة يعرفها الطب جيدا هذه الأيام، كشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للناس فعرفها لهم.

ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى، وقبل أن يكتشف العلم البشرى ذلك بسنوات طويلة وضع هذه الآية الكريمة ليخبرنا بأنه مادام هناك رقاد طويل فيجب أن يقلّب الإنسان يمينا ويسارا وأن يكون هذا أساسا فى المحافظة على صحته، أو على الأقل فى منع أضرار بالغة عنه.

❁ ❁ ❁

المشيئة لله تعالى وحده

ونأتى للآية الكريمة فى سورة الكهف: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ ﴾ [الكهف].

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة كبيرة، لماذا؟ لأننى أقول: إننى سأفعل كذا غداً وأنت تقول: إنك ستفعل ذلك غداً، والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى، إن شاء فعل وإن شاء لا يفعل، ونحن عاجزون تماماً عن أن نفعل أو لا نفعل إلا بمشيئة الله ولأوضح ذلك قليلاً، الذى يريد أن يفعل شيئا، يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل ويجب أن يملك ثانياً الوقت الذى سيتم فيه الفعل، ويجب أن يملك ثالثاً المكان الذى سيتم فيه الفعل، بمعنى أننى إذا قلت إننى سأذهب لمقابلة فلان غداً، وهذا هو أبسط الأشياء فيما يقول الإنسان: إنه سيفعله، فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجوداً غداً على قيد الحياة، حتى تتم هذه المقابلة، وأنا لا أملك هذه القدرة، فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة، وليس يوما كاملا.

إذن.. فقولى: إننى سأقابل فلانا غداً قول خاطئ؛ لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غداً على قيد الحياة أم لا، الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أخذها، فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة، فأنا قد أكون موجودا غداً ولكننى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص، قد أمرض فجأة، أو قد يأتينى شىء مفاجئ عاجل، أو قد يهبط علىَّ ضيف غير متوقع مثلاً، أو يحدث أى شىء آخر، المهم أننى قد أكون على قيد الحياة، ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة، بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية، وكنت أنا على قيد الحياة، وبصحة جيدة، وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة، فهناك الطرف الآخر، وهو الشخص الذى سأقابله، وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب، يتعطل فى الطريق، يمرض، يأتيه عمل مفاجئ، يحدث له أى شىء مفاجئ يمنعه من حضور المقابلة، كأن تتعطل سيارته أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة، أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق أو فى المنزل.

المهم فى هذا كله، أننى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول إننى سأفعل كذا، ولكن من الذى يملك القدرة، هو الله سبحانه وتعالى، فهو الذى

يقول كن فيكون، حى لا يموت، باق لا يفنى، لا يستطيع أحد أن يشغله عن شىء، أو أن يمنع فعله أو قضاءه؛ فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون، لماذا؟ لأنه ليست هناك قوى تستطيع أن توقف أو تمنع، أو تؤجل، أو تؤخر، أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا فإن الفعّال لما يريد هو الله سبحانه وتعالى وحده، أما نحن جميعا كلنا، كل البشر فعّالون لما يشاء الله، فما دام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم؛ لأن الله وحده هو الفعّال، ومادام العمل لا يدخل فى المشيئة فهو لن يتم؛ لأن الله وحده هو الفعّال.

ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ ﴾ [الكهف].

يريد أن يَلْفتنا إلى حقيقة كونية هامة؛ لأن الذى يتم هو مشيئة الله وإرادته، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾. حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال.

والإنسان أصله من تراب، ثم من نطفة، وهو الخلق بعد آدم، التراب أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى تدوس عليه كل يوم هو الجسد نفسه الذى تمشى فوقه ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه، وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب، فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك.

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة، هو الذى خلق الكون لك، وسخّره من أجلك، ولكى نعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب، فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى، ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله فى حفنة من تراب، وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله.

إن الله يريد أن يُذكّرنا بنعمه وأن نعلم دائما أن الفضل منه، وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ، وأن الذى منح يستطيع أن يمنع، وهذه مسألة هامة جدا فى سلوكيات الحياة، لماذا؟ لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم ويفتك بالضعفاء، ويطغى فى الأرض، أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ، والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء، فإن خشية الله تدخل فى قلبه فتجعله يراجع نفسه فلا يبغى ولا يظلم ويخشى الله فى كل عمل يعمله، وفى هذا صلاح الكون كله.

الغــرور.. أول مراحل الهلاك

بعد ذلك تأتى الآية الكريمة فى استكمال الحوار: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝﴾ [الكهف].

هذه الآية ترد الشيء إلى أصله، فالرجل هنا يُذكّره بقدرة الله التى نسيها، ويقول له أنت نسيت الذى وهب، وظننت أن ذلك من فعلك أنت، وأن الأسباب هى التى أعطتك كل هذا، ولكن الله هو الواهب الحقيقى، وهنا يجب أن تنتبه إلى الكهف المعنوى الذى تحدثنا عنه فى أول الكلام، فالعطاء هنا مستور داخل كهف الحقيقة، المعطى هو الله سبحانه وتعالى، ولكن هذه الحقيقة مستورة بالأسباب، ومن هنا نجد بعض الناس يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] والبعض الآخر يقول: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبهنا إلى الحقيقة فى كهف هذه الأسباب، وباطن قدرة الله سبحانه وتعالى.

فماذا قال الله سبحانه وتعالى على لسان الرجل الأقل مالاً وولدا؟ قال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝﴾ [الكهف].

هنا أراد الله سبحانه أن يأتى بعاملين أساسيين فى النعمة التى يتمتع بها ذلك العبد الذى اغترّ بماله وبقدرته، فقال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝﴾.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذين العاملين، ولم يذكر أية عوامل أخرى، كأن يقول له مثلاً إن الله يستطيع أن ينهى أجلك غداً، أو يستطيع أن يصيبك بمرض فلا تستطيع الحركة أو أى نوع آخر من أنواع النعم التى يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يسلبها من هذا الرجل الذى أصابه الغرور ونسى نعمة الله.

السبب الأساسى فى ذلك أن هاتين النعمتين بالذات هما سبب وجود هذه الجنة، أو الأرض الكثيرة الثمر، الكثيرة الخير، وهذان العاملان لا دخل لهما فى قدرة الرجل نفسه على العمل والعطاء، حتى يمكن أن يقال إنه هو الذى استطاع أن يهب نفسه هذه

الأرض الكثيرة الخير، والله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكرنا بأسباب قد تكون خافية علينا ولكنها الأساس فى الخير كله، فالماء الذى يسقى منه الرجل هذه الجنة الصغيرة هذا الماء لم يخلقه هو، ولن يستطيع أن يخلقه، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذى ساقه إليه ذلك أن العالم كله الآن وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم عاجز عن أن يوفر كوب ماء لشخص واحد، وأمامنا المثل الحى، هذه المساحات الشاسعة من الصحراء، لو أن الإنسان يستطيع بعمله أن يخلق الماء، لخلق لها الماء الذى يحولها من صحراء قاحلة إلى جنات وارفة الظلال والثمر.

فالأساس هنا فى هذه الجنة وفى الزرع والثمر الموجود فيها هو قدرة الله سبحانه وتعالى الذى وفر لها الماء، وهذه ليست قدرة أى بشر، ولا يستطيع بشر أن يدعيها حتى يومنا هذا فالعلم البشرى بكل قدرته عاجز عن أن يخلق نهراً وسط صحراء، ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى خلقت مئات الألوف من الأنهار، التى تسع كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان وزرع، وتسقيه بما يحتاج، وأحيانا بأكثر من حاجته.

إذن.. فالعامل الأساسى فى وجود الخير كله هو الماء، هو توافر الماء الذى خلقه الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكر الإنسان الذى أصابه الغرور فى نفسه، بأن الأساس فى كل هذا هو الماء الذى وفرته لك والذى لا تستطيع أنت أن توفره، ويقول الله تعالى: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٤١]

والله سبحانه وتعالى يحفظ هذا الزرع من كل ما يهلكه من أنواء وعواصف وصواعق قد تقضى عليه، وهذا ليس فى قدرة البشر، بل هو إرادة الله سبحانه وتعالى، يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء ومن هنا قوله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [الكهف: ٤٠].

النية وإخلاص العمل.. أمان من الدمار

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى حقيقتين مستورتين عنا في هذه النعمة، وهاتان الحقيقتان هما الأساس، الحقيقة الأولى أن الله سبحانه وتعالى قد أعد هذه الجنة بالماء أساس الحياة والزرع فيها، والحقيقة الثانية قد حفظها وبارك فيها، وكلا الأمرين ليس للبشر فيهما مشاركة، بحيث يستطيع أن يجادل ويقول: أنا فعلت، فالإنسان مثلاً حين يزرع، يضع الحب في الأرض ويرعاه.. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تجعل هذا الحب في الأرض ينمو ويثمر، ولكن هنا مشاركة بشرية ظاهرية قد تجعل البشر يقول: أنا الذي زرعت. ولكن الله سبحانه وتعالى أتى بحقيقتين لا يستطيع أي إنسان فيهما أن يقول: أنا شاركت.

الحقيقة الأولى: توفير الماء الذي يكفي لإعطاء الحياة لهذه الأرض وجعلها صالحة للزرع، وبدون هذا الماء لا يمكن أن توجد مثل هذه الجنة.

والحقيقة الثانية: أنه حفظها وبارك فيها. وكلتا الحقيقتين كما قلت لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيهما أو يدعي أنه هو الذي أوجدهما.

وهكذا.. ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٢].

ولكن لماذا أحيط بثمره؟ حتى يعرف أنه لا حول له ولا قوة، وأن المال والنفر اللذين اعتز بهما من دون الله لا يملكان له نفعاً ولا ضراً. ومن هنا فإنه أصبح ليجد الجنة خاوية على عروشها، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين له أن من يعتز بهم من دون الله لن يستطيعوا أن يوقفوا قضاء الله، وأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الجنة بقدرته هو، فلما كفر بالنعمة واغتر بالمال والولد، زالت عنه وذهبت، والتفت حوله فوجد الآية الكريمة: ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣].

أي: إنه بحث عن أولئك الذين كان يعتز بهم فلم يجد أحدا يستطيع أن ينصره أمام قدرة الله وما كان منتصرا، أي إنه حتى لو حاول ذلك بما له من مال أو نفر فلن يكتب له النصر.

هنا تأتي لحظة الندم فيقول: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٢].

فقد أحس عندما ذهبت النعمة أن الواهب هو الله وحده وهو الذي أخذها، ولكنه

كان قبل ذلك يقول: إن المال والنفر الذين عنده هم الذين يحفظون هذه النعمة من الزوال ويرعونها، وتمضى هذه الآية الكريمة. بعد أن ضرب الله هذا المثل للرجل الذى أنعم عليه فأشرك غير الله فى هذه النعمة، فأخذ الله منه ذلك. إن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك، فالعمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى يتقبله الله، والذى يقصد به إرضاء بشر ما، ويفسره صاحبه على أنه تقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فالله غنى عنه، وكذلك النعم.

والله يضرب لنا هذا المثل، حتى نتخذ الطريق السليم فى الحياة، فلا أدفع مبلغاً من المال مثلاً لعمل خير ويكون القصد الحقيقى من ذلك هو إرضاء شخص ما، أو قضاء مصلحة دنيوية.. أو الحصول على سمعة أو شهرة، أو أى غرض دنيوى آخر، فإذا أتيت إلى حفل ما، وقمت أعلن تبرعى بمبلغ من المال حتى يقال عنى إننى رجلُ خيرٍ ورجلُ برٍ وإحسان فإننى لا أفعل ذلك لوجه الله، وإنما أشرك فى ذلك ما أبتغيه من سمعة الدنيا، والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك[1]، وإذا قدمت مبلغا من المال وأنا أبتغى مرضاة الله، فالله أغنى الشركاء عن أن يشرك معه أحدا فى عمل يقصد به وجهه.

ومن هنا، فإن الذى فعله صاحب الجنة فى أنه نسب الفضل إلى نفسه، وأنكر نعمة الله، أو الذى يفعله بعض الناس فى أنه يريد أن يحقق مصلحة دنيوية بعمل ظاهره الخير، كل هذا يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه لا يتقبله، العمل الصالح لله وحده.. أما إذا كان عملاً صالحاً نقصد به مصلحة دنيوية وفى الوقت نفسه يقال إنه لله، فالله غنى عنه.

(١) روى مسلم [٢٩٨٥/ ٤٦]، وابن ماجه [٤٢٠٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه».

نبي الله موسى.. والخضر عليهما السلام

قبل أن نترك الحوار حول سورة الكهف، يجب أن نتعرض إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وقصة ذى القرنين.

واسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال، إنما هو عبد علمه الله من لدنه علما، والله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة، ولا يريدنا أن ندخل فى مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة، ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها، وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة، ولذلك لم يعرف الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران، وعيسى ابن مريم، لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما، ولذلك كان التعريف هنا واجبا، أما فرعون مصر وذو القرنين، وفرعون موسى، وكل ذلك فقد تركه الله سبحانه وتعالى بلا تعريف، حتى لا ندخل فى جدل حول الأسماء، ونترك الحكمة، ففرعون هو كل رجل يُريد أن يُعبد فى الأرض، وذو القرنين هو كل من أعطاه الله الأسباب للأشياء، إلى آخر ذلك.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] وفى قول الله سبحانه وتعالى هذا كهف يستر حقيقة.. فموسى رسول الله، والرسول هو المبلغ عن الله، ومن هنا فالمفروض أن كل علم يأتى عن طريقه؛ لأنه مكلف بإبلاغ الرسالة.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه ليس على مشيئته قيود أو حدود، وهو يفعل ما يشاء ويختار، ومن هنا فإنه قد يختار عبدا من عباده يؤتيه علماً لم يؤته لأحد من رسله وهذا فضل الله سبحانه يؤتيه من يشاء، ومشيئة الله ليس عليها قيود، وليس لها حدود.

ثم نأتى بعد ذلك إلى قصة العبد الصالح وموسى عليه السلام، وفيها عدة حقائق فى كهوف ولكن الكهوف التى تستر الحقيقة تأتى أولاً، ثم بعد ذلك تأتى الحقائق، ومن هنا فإن موسى عليه السلام عندما يرى الكهوف، ولا يرى الحقائق التى تسترها، لا يستطيع الصبر على ذلك ومن هنا يقول له العبد الصالح: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]، ثم يضيف: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٨].

العبد الصالح حكم بعلمه الذى علمه الله له، وموسى عليه السلام حكم بما

علمه . . ومن هنا اصطدم الحكمان، فالعبد الصالح كان يقوم بعمل خير، حقيقته مستورة في كهف ظاهره الشر، وموسى كان يرى في هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط ويحكم به؛ لأنه لا يعلم باطن الأمور، وفرق كبير بين الظاهر والحقيقة، فالظاهر يراه الناس جميعا، أما الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلمها، قد يؤدي الإنسان الصلاة ليقال عنه إنه رجل صالح، بينما هو يعصى الله في كل أمور الدنيا، وقد يصليها رجل يملأ قلبه الإيمان كلاهما أمامنا يصلي، ولكن الله يعلم الذي يصلي خشية له واتباعا لدينه، ومن يصلي ليقال عنه إنه رجل صالح، ثم يفعل كل ما نهى الله عنه.

ومثل ذلك الإحسان، قد يحس الإنسان وسط جمع من الناس لينال هدفا دنيويا، وقد يبتغي فضل الله بحيث لا تعرف شماله ماذا أعطت يمينه [1]، كلاهما أمامنا يحسن . . ولكن الجزاء هنا مختلف.

ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة في الحياة، الحياة كلها كهوف تخفي حقائق . إنسان يقول إنه يريد الخير بينما هو يضمر الشر . وآخر يسعى لإيذائك ويقسم أنه يسعى لفائدتك إلى آخر ذلك .

عندما يصطدم الحكمان، يقول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾ [الكهف: ٦٩] ولكن الذي يستطيع أن يصبر هو المكلف بهذه الأعمال الذي يعرف حكمها، والذي تلقى الأمر من الله تعالى، أما من سترت عنه هذه الحكمة فإنه لا يستطيع أن يصبر، ومن هنا يأخذ العبد الصالح عهداً على موسى فيقول له: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ [الكهف: ٧٠].

وفي هذا حكمة أنه ما لم يعلّم الله سبحانه وتعالى الإنسان الحقائق المستورة وراء الأفعال الظاهرية التي تحدث أمامه فإنه يضيق صدره ولا يستطيع الصبر، وموسى عليه السلام رسول الله وكليمه ولكنه لم يستطع أن يصبر على أفعال أخفى الله سبحانه وتعالى عنه حكمتها، فإذا كان هذا قد حدث لموسى عليه السلام، فنحن كبشر في كثير من الأحيان تضيق صدورنا بما هو ظاهر أمامنا، فنرى رجلا يعصى الله سبحانه وتعالى ومع ذلك يوسع الله له في رزقه، ورجلا آخر يسعى في شر، ومع ذلك يمكنه الله سبحانه وتعالى مِنْ أمر مِن الأمور، ورجل ثالث يسعى في الأرض فساداً، فلا يخسف الله به الأرض، بل يبدو ظاهريا للناس أنه يستطيع أن يفعل ما يريد.

---

(١) روى البخاري [٦٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». ومسلم [١٠٣١/ ٩١]، والترمذي [٢٣٩١]، والنسائي في المجتبى [٥٣٨٠].

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إن هذا الذى ترونه أمامكم هو الكهوف الظاهرية للحقائق التى أسترها . . والتى يصل إليها علمى وعلم من أعلمه.

وبذلك لا تحكموا بالظاهر، تحسبون أن الخير الظاهرى هو خير حقيقى، وأن الشر الظاهرى شر حقيقى، فقد يحدث لك شيء تعتقد أنه شر، ثم تمضى الأيام ويظهر ما هو مستور عنك، فتجد أنه كان فيه الخير العميم، وأنك لعدم إدراكك وعلمك قد حسبته شرًا وقت حدوثه، وقد يحدث لك خير وتفرح به، ثم بعد ذلك يظهر أنه شر كنت تتمنى عدم حدوثه.

والأمثلة فى حياة كل منا كثيرة، فكلنا ضاعت منه فرص اعتقد أنها خير، وحزن على ضياعها، ثم جاءت كل الأحداث التالية لتمنحه فرصا أحسن، وكانت حكمة الله أن يمنع عنه ليعطيه ما هو خير منه، كذلك ما نعتقده شرًا فى يوم من الأيام يصبح فجأة خيرا بعد أن تتكشف لنا الأحداث وتظهر الحكمة، حامدين الله سبحانه وتعالى على أن ذلك حدث وكلنا لو استعرض شريط حياته لوجد عشرات الأحداث التى تبين له هذه الحكمة.

ولكننا مع ذلك لا نطيق صبراً، حين تقع الأحداث رغم علمنا بهذه الحقيقة؛ لأنه ما دامت الحكمة خافية عنا فإن الصدور تضيق والصبر يصبح بلا طاقة، ولكن المؤمن هو الذى يعلم أن الخير فيما اختاره الله، والشر فيما منعه وأبعده.

نعود بعد ذلك إلى قصة موسى والرجل الصالح، حين دخلت التجربة فى الحركة الفعلية فى الأحداث التى نعيشها، ماذا جرى، الكلام النظرى شيء، وعندما تحدث الأفعال شيء آخر، عندما تحدث الأفعال لا يملك الإنسان نفسه وينسى كل شيء، وينفعل مع الأشياء بظاهريتها، وذلك أمر يجب أن نتنبه إليه، هناك فرق فى التأثير داخل النفس البشرية، بين كلام يقال من السهل أن يصبر عليه الإنسان، وبين الوقائع التى تحدث، فإن النفس تنفعل بالوقائع وفى لحظة الانفعال تنسى أشياء كثيرة.

ركب موسى والعبد الصالح سفينة، والسفينة مملوكة لمساكين، وموسى كنبى فيه الخير يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوصى برعاية المساكين، ومن هنا فإن واجبه أن يعاونهم ويقدم لهم كل مايحتاجون إليه ابتغاء مرضاة الله، يركب موسى والعبد الصالح السفينة فإذا بالعبد الصالح بدلاً من أن يقدم العون لهؤلاء المساكين أو يقدم لهم المساعدة، أو حتى يمنع عنهم الأذى وهو أقل ما يجب، إذا بالعبد الصالح يخرق السفينة ليعيبها ولا يطيق موسى صبراً على ذلك.

كيف يقوم العبد الصالح بهذا العمل، كيف يخرق السفينة ويعيبها حتى لا يستطيع هؤلاء المساكين أن يحصلوا على رزقهم بواسطتها، أو حتى يقطعوا من قوتهم لإصلاحها، وفرق بين سفينة سليمة، وسفينة معيبة فى طلب الرزق وفى خدمة هؤلاء المساكين.

ولا يطيق موسى صبراً، فيحتج ويقول: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١].

وهنا يذكره العبد الصالح بعهده ويقول له: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢]، فيتنبه موسى عليه السلام إلى ما فعل ويقول: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣].

لو أن موسى عليه السلام أوتى علم العبد الصالح لفعل ما فعله العبد الصالح فى السفينة ولكنه هنا حجب عنه العلم، فضاق صدره بظاهر الأحداث.

ويمضى العبد الصالح وموسى عليه السلام فى رحلتهما، وينطلقان فيلقى العبد الصالح غلاماً فيقتله، وهنا ينفد صبر موسى مرة أخرى، كيف يقتل هذا العبد الصالح غلاماً لم يؤذهما، ولم يفعل شيئاً، وهنا نلاحظ أن حادث قتل الغلام أكبر من حادث خرق السفينة. ويقول موسى عليه السلام: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤].

هنا يظهر الفرق بين من عنده الحقيقة وبين من حجبت عنه الحقيقة، ولكن قتل الغلام مسألة تحتاج إلى قدر أكبر من عدم الانفعال لا يقدر عليه البشر، فيذكره العبد الصالح بعهده، ويقول له: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥].

وهنا يتذكر موسى عليه السلام أنه نسى هذا مرتين فيقول له: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦]. أى إنى أعذرك إذا رفضت مصاحبتى لأننى لا أطيق الصبر.

وينطلق الاثنان معاً إلى قرية، هما غريبان وجائعان، ويطلبان من أهلها طعاماً، والمفروض أن الغريب إذا مر بقرية فإن أهلها يعرضون عليه الضيافة ولو لم يطلب، والخلق الإنسانى يقضى بأن يكرم أهل القرية الغريب الذى يدخل قريتهم ويطعموه حتى ولو لم يطلب الطعام فما بالك إذا كان جائعا.. وطلب منهم لقمة ليقيم بها أوده، فإذا بهم يرفضون حتى ذلك.

شخصان غريبان جائعان، موسى عليه السلام والعبد الصالح، دخلا القرية، وطلبا من أهلها لقمة صغيرة فرفضوا أن يعطوهما أى شيء.. ماذا يكون سكان مثل هذه القرية؟! يكونون من اللئام الذين لا يستحقون أى معروف.

ولكن موسى عليه السلام يفاجأ، فالعبد الصالح يجد جدارا متهدماً فى القرية فيعيد بناءه ويكمله ويجمله، ويذهل موسى عليه السلام من هذا التصرف.. لقد طلبنا لقمة من أهل هذه القرية لنسكت بها صراخ الجوع فرفضوا، وأنت تجمل لهم قريتهم، وتبنى جدارا متهدما جزاء لهم على ذلك، كان من الأولى أن تطلب أجراً نأكل به طعاماً بدلاً من أن نقوم بذلك مجاناً، فهؤلاء أناس لا يستحقون المعروف، وهنا قال موسى عليه السلام: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٧٧].

وكان هذا هو الفراق بين العبد الصالح وموسى عليه السلام، فقد عاهده أول مرة ونسى وعاهده ثانى مرة ونسى، واتفقا على أن المرة الثالثة تكون فراقا بينهما فلا يصاحبه، فقال له العبد الصالح: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨]

ولكنه لم يقل له هذا الكلام ويمضى، بل بين له الحكمة فى كل ما حدث، قال: إنه خرق السفينة التى يملكها المساكين، لينجيها من ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة غصبا، ومن هنا - لكى تنجو هذه السفينة ولا تضيع وتبقى لهؤلاء المساكين - كان لابد أن يعيبها حتى لا يأخذها الملك الظالم، والسؤال أيهما خير، أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون إصلاحه أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الإطلاق، أيهما خير للمساكين: أن تكون لديهم سفينة مخروقة، أم يستولى الملك الظالم على السفينة، ولا تبقى لهم سفينة أصلا؟ لو خيروا لاختاروا ما حدث، ووجدوا فيه الخير العميم؛ لأن الذى حدث هو شيء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها، ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا الواقع ولكن غياب الحكمة عن موسى عليه السلام جعله لا يطيق صبرا على الواقع ويعتبره شرًا.

نعود بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح، ماذا كانت الحكمة: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠].

أي: إنسان ينظر إلى الابن كقرة عين، وامتداد له، وذكرى حسنة يتركها فى الدنيا، ولكن الإنسان إذا نظر إلى ابنه فى أنه سيكون السبب فى شقائه وتعبه، ويفتنه فى دينه، وهو رجل صالح، فإنه فى هذه الحالة يتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يبدله بابن غيره صالح مؤمن.

فالابن، أو الابنة، وهذا ما نراه كثيراً فى حياتنا كل يوم، عندما لا يكون صالحاً، قد يفتن أبويه فى دينهما، قد يجعلهما يسرقان من أجله، أو يرتكبان ما يغضب الله ليرضياه ومن هنا فأنت أحيانا تسرق من أجل ابنك، وأحيانا تطغى من أجل ابنك، والأب دائما والأم ضعيفان أمام الابن فى مطالبه.

والإنسان الصالح لا ينظر إلى هذه الحياة وحدها، وإنما ينظر إلى الحياتين معا، الدنيا والآخرة، ومن هنا حين يمد يده إلى مال غيره يعرف أنه سيحاسب، وأنه سيعذب من أجل ذلك، فلا يكون سعيدا بهذا المال الحرام، بل يكون شقيا به، وهكذا كل ما يغضب الله منه مهما كان فيه من بهجة دنيوية، فإنه بالنسبة لرجل غير صالح، أو غير مؤمن قد يسعده ذلك الذى يبتغى لذة عاجلة، أما الإنسان المؤمن فإنه مهما أعطته الدنيا بطريق يغضب الله لا يمكن أن يكون سعيدا بما حصل عليه لأنه يعلم يقينا أنه بإغضابه الله، وارتكابه ما نهى عنه لن يحصل على شيء إلا الشقاء فى الدنيا والآخرة مهما كان ذلك الظاهر السريع يحمل من أشياء تفتن الكافر أو غير المؤمن.

إذن.. إذا خُير الوالدان الصالحان فى أن يهبهما الله ولداً فاسداً يضيع لهما دينهما

ويخرجهما من الطاعة إلى الإثم . . أو لا يهبهما ولداً على الإطلاق، اختارا الثانية، ذلك أنهما يعلمان يقينا أنه من الخير لهما ألا يكون لهما ولد . . على أن يكون لهما ولد أو ابنة يورثهما الشقاء، ويجعلهما يخرجان عن طاعة الله .

الله سبحانه وتعالى لو خير الوالدين الصالحين وقال لهما إن هذا الابن سيؤدى بكما إلى النار، وسيجعلكما تطغيان وتكفران . . لقالا يا رب لا نريده، إذن فالاختيار هنا هو اختيار الرجل الصالح لما فيه الخير .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى اختار لهذين الوالدين الخير، بل إنه اختار لهما رحمة منه هائلة، فالابن الذى قضى أجله وهو غلام، قد منع عنهما الشرور التى كان سيرتكبها فى الدنيا، وبذلك ألحقه الله بوالديه فى الجنة رحمة بهما، هذه واحدة، والثانية أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبدل بهذ الابن غلاما آخر صالحاً مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١].

فالله سبحانه وتعالى قد اختار أن يبدل هذا الغلام الذى كان سينشأ فاسداً غير صالح وسيؤدى بأبويه إلى الكفر وإلى النار، وأبواه صالحان مؤمنان قد اختار الله تعالى برحمته أن يبدلهما خيرا منه، أى ولدا صالحا، يكون خير ذكرى لهما يتركانها فى هذه الدنيا .

ونحن حين نتابع الأحداث، لا يجب أن نربط الحدث بزمن، ذلك أن الزمن شىء نسبى موجود عندنا فقط، أما الله سبحانه وتعالى فلا يحده زمن، ومن هنا فإننا حينما نستحضر أى عمل يجب أن نستحضر العمل والجزاء عليه، فنحن حين نرتكب معصية من المعاصى قد يفرح بها غير المؤمن، يفرح بأنه حصل على مال حرام، أو أنه أخذ ثمرة عمل غيره، أو أنه ظلم إنسانا وطغى فى الأرض ليحصل على مكسب عاجل .

ولكن الأمور لا تؤخذ هكذا بالنسبة للإنسان المؤمن، والفرق هنا بين المؤمن والكافر، أن الجزاء قد حجب عن الاثنين معا، ولكن الإنسان المؤمن يرى الجزاء عن يقين، وكأنه حاضر أمامه، بينما الكافر لا يرى الجزاء ؛ لأنه مستور عنه، وهو لا يؤمن به، ولو كان الجزاء مكشوفا عنا لتساوى المؤمن والكافر فى الطعام، فإذا ملأنا حجرة بالذهب، وقلنا لإنسان هذا مال حرام هو لك، خذه وتمتع به أياما معدودة، ثم فتحنا له باب الحجرة فرأى عذاب الله فى نار جهنم، وقلنا له بعد أن تتمتع بهذا المال لأيام معدودة سنلقى بك فى هذه الحجرة لتلقى جزاءك من الله، فى هذه الحالة لن تمتد يده إلى قطعة واحدة من هذا الذهب وكذلك كل معاصى الله لن يقربها .

ولكن الذى يحدث، أن الإنسان المؤمن يرى هذا فى عقله، ولو أنه غُيِّب عنه، فهو حين يمد يده إلى مال حرام، تظهر أمام عينيه صورة النار، وعذاب الله، فيبتعد مسرعا مستعيذا بالله من هذه المعصية، أما الكافر أو غير المؤمن فإنه لا يستحضر هذا العذاب . . وينكره أو على الأقل يحاول أن ينكره، وأن يقنع نفسه بأن كل هذا غير صحيح، ومن هنا

فإنه ينطلق إلى الحرام معتقدا موهما نفسه أنه لا عقاب بعده، وأن الذى سيغنيه فى الدنيا هو مكسب له لن يحاسب عنه فى الآخرة، بينما الحقيقة المستورة هي غير ذلك تماماً.

ومن هنا فإن الإنسان المؤمن يرى المعصية جزاء وعذابا من الله، والإنسان غير المؤمن يرى مكسبا ومغنما، وباختلاف النظرة يختلف العمل، ولكن الحقيقة تبقى وإن كانت خافية مستورة عنا، وهى أن كل عمل له حسابه.

نعود بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح، لو أن هذا الغلام عاش ولم يأت أجله، ونشأ فاسداً وأورد النار وجعلهما يسرقان ويطغيان ليرضياه، أكان ذلك خير لهما أم أن يبدلهما الله بغلام صالح يحفظ لهما دنياهما وآخرتهما؟

لو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع، لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسابا، وأن هناك بعثا، وهما يرعيان الله فى أمورهما فى الدنيا، بهذا اليقين المستقر فى قلبيهما.

إذن.. فالذى حدث رغم أن ظاهره الشر، حقيقته خير للأبوين الصالحين وللغلام، ولكن الذى ستر عنه الغيب يحسب أنه شر.

والغريب أننا فى حياتنا نفعل أشياء كثيرة من أجل أن نحصل على حياة أفضل فى المستقبل فالأب والأم مثلاً يحرمان نفسيهما من كل مباهج الحياة، ليوفرا لأولادهما العلم الذى يجعلهم قادرين على حياة كريمة، بل إنهما يسعيان ليوفرا لأولادهما حياة أسعد من تلك التى عاشوها معهما، والإنسان المريض يحرم نفسه من طعام يحبه، أو من شراب تشتهيه نفسه، أو من أشياء كثيرة يهواها قلبه، ويحتمل مرارة الدواء، وربما الرقاد الطويل ليحصل على الصحة، هذه سنن الحياة لا اختلاف عليها، فإذا جئنا إلى الحياة الدنيا والآخرة وجدنا بعض الناس يسرعون إلى مغنم عاجل.. ناسين ذلك القادم وهو جزاء الله.

وتعجب أنت من إنسان يحرم نفسه من بهجة الحياة فترة طويلة، ويظل يذاكر ويكدح حتى يحصل على حياة طيبة، ثم ينكر هذا الإنسان نفسه سنة الله سبحانه وتعالى التى اتبعها هو فى الأمور الدنيوية، فيقترف الآثام، ويرتكب المعاصى، ناسيا أو متناسيا أن ذلك مثل الذى يلعب فى صباه، ويفعل ما تهواه نفسه، فإذا كبر لم يجد عملاً يقتات منه، بل إنه أكثر من ذلك بكثير، فالحياة الدنيا أيام معدودة، والحياة الآخرة خلود، والحياة الدنيا أن يتمتع الإنسان بقدراته هو، والحياة الآخرة أن يتمتع الإنسان بقدرة الله سبحانه وتعالى التى لا تحدها حدود، وفرق هائل بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق، والحياة الدنيا فيها مباهج محدودة، إذا أسرف فيها الإنسان هلكت صحته، ولم يستطع التمتع بها، فالذى يفرط فى الطعام علاجه الحرمان من الطعام، والذى يفرط في أى لذة أخرى دنيوية حرمه الله منها ويجعله غير قادر عليها، أما الحياة الآخرة، ففيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هنا فى هذه الحكمة أساس إيمانى، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ

فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف : ٨٠].

فقد قدم الله سبحانه وتعالى حقيقة هامة قبل الحدث نفسه، وهى أن الأبوين مؤمنان صالحان، هذا الإيمان فى الأبوين يجعلهما إذا خيرا بين ابن يضيع هذا الإيمان، وبين لا ابن على الإطلاق، أن يختارا الحقيقة الثانية، ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا العمل - الذى إذا نظرنا إليه بالمقاييس الدنيوية نحسبه شرا - قد حفظ إيمان الأبوين وبدلهما ابنا صالحاً، ثم أكرم الابن بأن قضى أجله وهو غلام، ولم يتركه حتى يدخل محك التجربة ويصبح فاسداً يكتب عليه العذاب فى الآخرة. وكما قلت لو خيرت أبوين مؤمنين بين قضاء الله.. وبين ما كان سيحدث لاختارا قضاء الله سبحانه وتعالى، واعتبراه رحمة منه وفضلا، ولكن الذى يجب ألا يغيب عنا فى هذه الحقيقة هو إيمان الأبوين أولا. فالإيمان هنا هو أساس هذا الاختيار.

ننتقل بعد ذلك إلى الحقيقة الثالثة، وهى القرية التى استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما اثنان غريبان دخلا إلى قرية وهما فى حالة جوع شديد، أبسط الأشياء أن القوم الكرام إذا دخل غريب القرية أطعموه ولو لم يكن جائعا، أو على الأقل عرضوا عليه الطعام، فإذا كان جائعا وجب عليهم إطعامه، ولكن أهل هذه القرية التى دخلها موسى والعبد الصالح قابلوهما بلؤم ونذالة، ذلك أن موسى والعبد الصالح كانا جائعين وغريبين، وطلبا الطعام من أهل القرية، ولم يطلبا طعاماً فاخراً، أو مائدة تحوى عشرات الأصناف، ولكنهما طلبا لقمة تقيم أودهما وتسكت جوعهما، فماذا فعل أهل القرية؟ أبوا، أى: رفضوا أن يعطوهما حتى هذه اللقمة الصغيرة، وإذا بالعبد الصالح يجد جداراً متهدما فى القرية فيبنيه ويجمله ويجدده، ولم يطق موسى صبرا، هؤلاء الناس رفضوا إعطاءنا لقمة ونحن جائعان، وأنت تقوم بهذا العمل لهم مجانا، تقدم لهم خدمة، تبنى لهم جدارا متهدما، جزاء على هذا اللؤم وهذه النذالة. وتأتى الحقيقة المستورة لتبين لموسى عليه السلام الحكمة من بناء هذا الجدار، فهذا الجدار لم يكن خيراً لأهل القرية الذين تخلوا عن كل مبادئ الشهامة، بل كان خيراً لأولاد رجل صالح يخشى عليهم من أهل هذه القرية الذين لا يرعون عهدا ولا يطعمون جائعا، ولأنهم يفعلون ذلك - لا يطعمون الجائع، ولا ينفقون شيئا فى سبيل الله - فقد منع الله سبحانه وتعالى عنهم الخير، وأبقاه لأولاد رجل كان صالحا وتوفاه الله، ذلك أن العمل الصالح للأب يبقى لأولاده فى الدنيا وينفعهم.

وهنا يحدث الفراق بين موسى والرجل الصالح، ولكن بعد أن يبين لنا الحكمة فيما حدث. والحكمة هنا تختلف عن الحادثتين السابقتين.

كانت الحادثتان السابقتان فى ظاهرهما شرًا، وفى حقيقتهما خيراً، حادث خرق السفينة أنقذها من الملك الظالم الذى كان سيغتصبها، وقتل الغلام حفظ لأبويه صلاحهما وعوضهما الله سبحانه وتعالى عنه بولد صالح، أما هنا فالظاهر لأهل القرية أن هذا الرجل

الصالح قد قدم عملا خيرا طيبا لهم بأن وجد جدارا قديما يكاد يتهدم فبناه، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما، اتضح أنه حدث لمنع الخير عنهم، فالجدار المتهدم كان تحته كنز، وهذا الكنز لغلامين يتيمين فى المدينة، وكان أبوهما صالحا، إذن فصلاح الأب ينعكس على الأبناء، والأب الصالح يهيئ الله لأبنائه سبيل الرزق فى الحياة، بالعمل الصالح.

والسؤال هنا، وهل كان الكنز لهذين الغلامين؟ أبداً. ذلك أن أهل هذه القرية وأخلاقهم عدم إطعام الضيف الجائع، كانوا سينقضون على الكنز ويأخذونه، ولايعطون الغلامين شيئا. فالله سبحانه وتعالى بسبب أن هذه هى أخلاق أهل القرية، منع عنهم هذا الخير، أو الكنز وفى الوقت نفسه بسبب صلاح والدى الغلامين، حفظ للغلامين كنزهما.

هذه هى الحكمة المستورة، ولكن ما هو الظاهر أمام أهل القرية، إن غريبين دخلاها جائعين فرفضوا إطعامهما، فإذا بهذين الغريبين أو أحدهما يجد جدارا متهدما، فيبنيه ويجمله ويزينه.

لو أنك كنت تعيش فى هذه القرية، ورأيت هذا الحادث، لقلت سبحان الله، قوم لئام يرفضون إطعام الغريب الجائع، ويرفضون العمل بما أمر به الله من إطعام المسكين، ومن إكرام الغريب، ويرفضون أن يقدموا لقمة واحدة لرجلين جائعين، ثم يأتى أحد الرجلين فيقيم جدارا جميلاً فى القرية، ثم كنت تنظر إلى السماء، وتقول يا رب، ما هذا، هؤلاء الناس أشرار، وقاموا بعمل شرير، عمل لا ترضى أنت عنه، سبحانك وتعالى - وهو إطعام الجائع الغريب - ثم ترسل إليهم من يجمل لهم القرية، ويقيم فيها جدارا متهدما، ويعمر فيها، كيف تجازى يارب هؤلاء اللئام بهذا الخير.

وكنت تتعجب كيف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لقوم هم أبعد ما يكونون عن طاعته من يزين لهم قريتهم ويجملها، وهذا هو الذى جعل موسى لا يطيق صبرا، ولكن عندما انكشفت الحقيقة عن المستور فى علمه، تبين أن ما حدث لأهل هذه القرية لم يكن خيرا بل كان منعا للخير، رغم أن ظاهره أمام من لا يعلم خير، ولكن حقيقته عكس ذلك تماما.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد ساق لنا هذه الأمثلة فى سورة الكهف، ليقول لنا لا تحكموا بالمقاييس الدنيوية، فعندى أنا العلم، ولا تحكموا بالظاهر أمامكم، وأنا أعلم أن صدركم يضيق بما يحدث، وأنكم لا تستطيعون الصبر، وأنكم تتعجبون من أشياء كثيرة حين تجدون شرا يحدث لأناس طيبين صالحين، وخيرا يحدث لأناس يعصون الله، ذلك ليس المقياس؛ لأن ما أمامكم هو الظاهر، وما عندى هو الحقيقة، والظاهر أمامكم قد يكون عكس الحقيقة تماما، وما تحسبونه شرًا قد يكون خيراً، وخيراً عميما، وما تحسبونه خيراً قد يكون شرا، أو منعا للخير.

كهوف الحياة توارى الحقائق عنا.. فلنعتبر

لقد ساق الله سبحانه وتعالى هذه الأمثلة ليبين أن هناك كهوفا فى الحياة، توارى الحقائق عنا، وأن على الإنسان ألا يغتر بظواهر الأشياء، وأن يعلم أن هناك حقائق مخفية، وليعلم كل إنسان أن كل قدر قد يقع عليه ليس له فيه اختيار، فيه حكمة، والحكمة ليست دائما ظاهرة، ومن هنا فعلينا ألا نحكم نحن بعلمنا فيما يحدث لنا من أقدار، وأن نتقبل الأشياء بلا انزعاج من شر نحسبه حدث، ولا فرح شديد من خير نحسبه تم، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم، وقد نكره شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وقد نفرح لأشياء ثم بعد ذلك نتمنى لو لم تحدث، هذه حكمة يريد أن يبينها الله سبحانه وتعالى لنا حتى نتحمل الحياة، ونحن نؤمن أن قدر الله سبحانه وتعالى هو ما نرضى به وأن ما يقسمه الله سبحانه وتعالى هو الخير لنا، وهكذا كما قلت فى القدر الذى يقع علينا، ولا يكون لنا اختيار فيه.

ونعود فى ختام الحديث عن سورة الكهف إلى قصة ذى القرنين، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف].

وهنا يحاول بعض الناس أن يخرج بالصورة عن هدفها إلى فرع لا يفيدنا، وليس مطلوبا منا أن نبحث عنه، فبدلا من أن يتأمل ما قاله الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين، يدخل فى جدل حول من هو ذو القرنين، ومتى عاش، وفى أى بلد كان، إلى آخر هذا الكلام.

والقصص فى القرآن ليس مقصودا بها تحديد أو تشخيص أعلام القصة، ليس مطلوبا منا أن نترك الحكمة من الآية، وندخل فى جدل حول من هو ذو القرنين، فذو القرنين موجود فى كل عصر، بأسماء مختلفة.

قصة ذى القرنين.. والعبرة منها

نعود مرة أخرى إلى قصة ذى القرنين، ولا نريد أن ندخل فى تعريف من هو ذو القرنين وإنما نتحدث عن الحكمة فيما رواه الله سبحانه وتعالى.

ذو القرنين رجل مكن الله له في الأرض، أى أعطاه الملك، وآتاه الله سبحانه وتعالى بأسباب من فعله، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إنه إذا مكننا فى الأرض بأسباب من عنده، لابد أن نضيف إليها أسباباً أخرى، ولا نكتفى بذلك، وهذا ينفى قضية التواكل والتكاسل عن العمل، فإذا مكننى الله بأن أعطانى أرضاً، فيجب أن أضيف إليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار، فإذا تركت الأرض بوراً، لا أضيف إليها عملاً من عندى، وإنما أخذت أسباب الله بدون أن أضيف إليها سبباً، فأنا لا أعمل بشريعة الله فى الأرض.

وإذا مكننى الله سبحانه وتعالى من مال، فيجب أن أستخدمه فيما ينفع الناس ويفتح أبواب الرزق لهم، ويعمر فى الأرض، ولا أكتفى بأن أضعه فى خزائنى، وأغلق عليه الباب، وأنفق منه على حاجاتى؛ أى إن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانى أسباب المال، فيجب أن أضيف إليها من عندى، وهكذا فى كل أمور الدنيا، إذا مكننى الله سبحانه وتعالى من أى شىء، فيجب أن أضيف له من عندى فيبارك فيه الله، ويزيده، وألا أكتفى بما مكننى الله فيه، فإذا مكننى الله من علم مثلاً، فيجب أن أنشره لينتفع به الناس، إلى آخر هذا.

ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف: ٨٦].

وهكذا خيره الله سبحانه وتعالى بعد أن مكّن له فى أن يواجه هؤلاء الناس: المخطئ بالعذاب، والمحسن بالحسنى.

كما روى الله لنا فى القرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧] لماذا؟ لم يقل يا ربى، أما من ظلم فسوف أتركه ليعذب فى الآخرة؛ لأن قوانين الحياة - وهذه نقطة هامة جدًا - تقتضى الحساب أولاً ليستقيم كل شىء، وحياة دنيوية بلا حساب تنتهى إلى نوع من الفوضى.

فالدنيا فيها المؤمن والكافر، وفيها المحسن والمسىء، أساس الحياة الدنيا أن يكون الحساب قبل الثواب، هناك قواعد وضعها الله للحياة الكريمة فى الأرض، إنسان غير

مؤمن سرق لابد أن يحاسب في الدنيا، إنسان غير مؤمن خرج عن أي حد من حدود الله لابد أن يحاسب، ولكن ذلك لا يمضي على حدود الله وحدها، فإذا أردنا أن تمضي الحياة بشكل مستقيم يضمن انتظام العمل، وتحمل المسئولية، فيجب أن يكون هناك حساب أولاً لمن يخطئ.

وهنا يجب أن نتنبه إلى هذه الآية جيدا، لماذا قدم الله تعالى قوله وهو يروى لنا قصة ذي القرنين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧] ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٨]. ذلك أن المحاسبة أو الحساب يجب أن تسبق أية مكافأة، أو ما تسميه نحن بلغتنا حوافز أو مكافآت تشجيعية، أو ما تطلق عليه نحن جزاء دنيويا أو ماديا فإذا أخذنا أي عمل من الأعمال في الدنيا كلها، وبدأنا لا نحاسب المهمل، ونجزل العطاء لمن يحسن العمل، فإن ذلك العمل لا يستقيم أبدا مهما كان العطاء الذي نعطيه، بل إن الأساس أن تأتي المحاسبة أولا، ثم بعد ذلك - وبعد أن يمضي العمل على أساس سليم ويؤتي ثماره ويزيد - يأتي التشجيع، وإجزال العطاء.

على أننا يجب أن نتنبه هنا إلى نقطة هامة جدا، هي أنه من يظلم في الأرض له حسابان حساب عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، والظلم هنا لكي نعرف دقة التعبير في القرآن الكريم نوعان: إنسان يظلم نفسه، وإنسان يظلم غيره، وكلاهما له حساب، فالإنسان الذي يظلم نفسه هو الذي يوردها مورد الهلاك في الآخرة، بألا يؤدي فروض الله، وقد يكفر بالله ونعمه، وقد لا يحسن وهو يملك المال الكثير، ولا يؤدي الصلاة، ويقوم بالإيذاء حبا في الإيذاء، ومن دون أن ينال جزاء دنيويا، ومن هؤلاء كثيرون، كالذي يرسل خطابات مجهولة بتهم كاذبة، ضد زملائه أو مرؤوسيه أو جيرانه، أو كالذي يشهد شهادة الزور ابتغاء الأذى، ومن دون أن يكون له جزاء يحصل عليه، هذا الإنسان يظلم نفسه بأنه يوردها مورد التهلكة، وفي الوقت نفسه لا يعطيها جزاء الدنيا العاجل الذي قد تستفيد منه النفس الظالمة، والنوع الآخر من الناس هو الذي يظلم نفسه ويظلم غيره، كالذي يسرق مال غيره أو يُزوِّر ليحصل على مال حرام، أو لذة عاجلة، ذلك الإنسان قد باع الدنيا بالآخرة، أعطى نفسه ما هو زائل، وسلبها مما هو دائم وخالد.

العذاب هنا يكون على شقين، الشق الأول هو الشق الظاهر، كأن يضبط إنسان إنسانا وهو يسرق المال، أو يأخذ حقوق الإنسان بالظلم، وهذا يجب أن ينال عقابه، الشق الثاني، إنسان يفعل في الخفاء ما نهى الله عنه، ولا يعبد الله، وهذا يرد إلى ربه، فيعذبه عذابا نكرا.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى حدد لنا مهمة كل من يمكنه الله سبحانه وتعالى في الأرض ومهمته أن يقف ومعه ميزان يزن به حركة الحياة، حتى تستقيم هذه الحركة،

فاستقامة حركة الحياة أساسها أن الظالم يعاقب، ولا نقول إنه يترك لله ليعاقبه، فلابد أن تكون هناك عقوبة دنيوية ردعا لمن لا يؤمن بالله، أو لمن نسي الله، وهذا لا يعفيه من عقاب الله.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٨].

ولكننا نقف عند هذه الآية الكريمة ونقول: ولماذا لم تكمل بأن هذا الإنسان يرد إلى ربه فيدخله جنات النعيم، وهنا حكمة بالغة، هي أن الإيمان هو بين العبد وربه، والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعرف من المؤمن حقيقة، ومن الذى يتظاهر بالإيمان بينما يفعل فى الخفاء ما ينهى عنه الله، ومن هنا فنحن مهما أوتينا من مقاييس الدنيا، لا يمكن أن نفرق بين مدعى الإيمان، والمؤمن حقيقة، ولذلك فأمر هؤلاء متروك لله سبحانه وتعالى الذى يعرف ما تخفيه الأنفس، وما تكتمه الصدور، وهو يعرف الذى يعمل عملا يبتغى به مرضاة الله، والذى يعمل عملا ظاهره الخير، وباطنه طلب الجاه فى الدنيا، ومن هنا فإن الأمر متروك لله سبحانه وتعالى، ما كان مخفيا في الصدور، فينال المؤمن الحقيقى الجزاء، أما الذى آمن رياء أو نفاقا، أو ابتغاء سمعة، أو ابتغاء جاه دنيوى، فأمره إلى الله وهو الذى يحكم.

وتمضى الآية الكريمة لتقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝ ﴾ [الكهف].

وقد تحدثت عن ذلك في أول هذا الفصل وبينت أن معنى الآية الكريمة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾، أن الإسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة، أى إنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية، بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام، وإذا بحثنا الآن نجد هناك مناطق فى العالم لا تغيب عنها الشمس ستة أشهر فى العام فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى لمدة ستة أشهر وعن القطب الجنوبى مدة ستة أشهر فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض، لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى يخضع لها باقى أجزاء الأرض، وإنما تشرق الشمس عليها بدون أن يسترها الظلام لفترة طويلة.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ذى القرنين عندما بلغ ما بين السدين، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف: ٩٤].

وتمضى الآية الكريمة فيقول ذو القرنين وهم يعرضون عليه المال: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥].

وهنا نصل إلى قانونين من قوانين الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بهما، القانون الأول قول ذى القرنين ما مكنى فيه ربى خير، وهذا دليل قوى على أن الرجل الصالح المؤمن المصلح فى الأرض، لا يتكالب على المال، ولا يعمل من أجل جمع المال وكنزه، بل إنه يعلم يقينا أن الخير الذى يعمله، هو أبقى وأحسن من المال الذى يمكن أن يحصل عليه وأنه إذا أنفق ماله فى الخير، فإنه لا يضيعه ولكنه يضاعفه، وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن ذا القرنين رجل صالح، ولو أنه كان رجلا يدعى الصلاح، ويعمل من أجل الدنيا لفرح بالمال كشىء عاجل، ولم يفضل عليه الخير الذى هو أبقى عند الله، والذى يضاعفه الله سبحانه وتعالى.

أى إن الله يريد أن يقول لنا: لا تفرحوا بالمال، ولكن افرحوا بخير أسوقه إليكم لتؤدوه فذلك أحسن من المال وأبقى، وهو النافع فى الدنيا وفى الآخرة، ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول على لسان ذى القرنين: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾.

ومعنى هذه الآية الكريمة أن الله يريد أن يقول لنا إننا يجب أن نعمل لندرأ الظلم عن أنفسنا فإذا كان هناك أناس ظالمون مفسدون فى الأرض، فإننا يجب أن يكون بعضنا عوناً لبعض فى درء هذا الخطر، أو هذا الظالم الذى يهددنا، وأننا فى حياتنا الدنيوية يجب أن نستخدم الإمكانيات العقلية التى أعطاها الله لنا لندرأ عن أنفسنا كل ما هو شر، ونأتى أو نعمل لما هو خير، الله سبحانه وتعالى قد أعطانا نعمة العقل، لا لنضيعها فى الجدل عن غيبيات لا نعلم عنها شيئا، ولا لنفسدها بالدخول فى أشياء لن نصل فيها إلى نتيجة، ولا نستطيع أن نثبتها، ولكن لتعيننا فى حياتنا الدنيوية فنستخدم عقولنا لنكتشف ما فى الأرض من أسرار وضعها الله سبحانه وتعالى، ومن مواد خلقها الله سبحانه وتعالى، ثم نستخدم عقولنا لنصنع من هذه القوانين التى خلقها الله، ما يوفر لنا درء الخطر عن أنفسنا، وتوفير الحياة الكريمة لنا، والله سبحانه وتعالى قد خلق لنا العقل، وخلق لنا ما يشغله، وميادين نشاطه فى الأرض، ولكن بعض الناس يحاولون استخدام العقل فيما لا ينفع الناس، بل يضرهم وفى التشكيك فى الغيبيات، وفى الصد عن سبيل الله، وفى الإفساد فى الأرض، تلك كلها أشياء لم يجعلها الله سبحانه وتعالى من وظيفة العقل، فالعقل البشرى له حدود، والله سبحانه وتعالى لا تحده حدود ولا قيود.

ومن هنا فإن وظيفة العقل البشرى فى أن يشتغل فيما خلق له، وهو الأرض وما وضعه الله فيها، والكون وما يريد الله سبحانه وتعالى أن يكتشف فيه من أسرار للعقل البشرى.

وهكذا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نستخدم عقولنا فى حياتنا الدنيوية، ولا نعطلها

ولا نلغى تفكيرها، وفى الوقت نفسه ينهانا عن أن نهدر العقل البشرى فيما لم يخلق له، وفيما لن يصل فيه إلى نتيجة.

كان أول ما فهمه ذو القرنين من هؤلاء الناس أنهم أهل ضعف، يطلبون حمايتهم من أهل قوة وجبروت، وهم يأجوج ومأجوج، أو أنهم مستعدون لدفع الأجر لذى القرنين مقابل أن يحميهم من هؤلاء الجبارين الذين يفسدون فى الأرض، فيقتلون أولادهم ويأخذون مالهم إلى آخر ما كان يحدث، وهؤلاء أناس ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ولم تمكنهم عقولهم من أن يجدوا الطريقة ليحموا بها أنفسهم من هذا الجبروت.

وهنا قال ذو القرنين، إن ما مكنى فيه ربى خير، ما معنى هذا القول الكريم؟ معناه أن ذا القرنين أوتى من العلم، بحيث عرف أن الخير فى الدنيا أفضل من المال، لأن المال يأتى ويذهب، أما الخير فيبقى إلى الأبد، العمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى هو أحسن ما يمكن أن يكسبه الإنسان، لماذا؟ لأنه باق خالد، يذهب السيئات، ويقرب من الله، ويبقى خالدا للإنسان فى آخرته يزيد ولاينقص، والعمل الصالح الذى يؤتيه الرجل المؤمن، قاصداً به وجه الله سبحانه وتعالى يجعله ممن ينطبق قول الله تعالى عليهم: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝ ﴾ [فصلت].

ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨]، ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ [الطلاق]، ومن هنا فإننا نرى أن عمل الخير جزاؤه فى الدنيا دعوة مجابة من الله سبحانه وتعالى بما تشتهيه المؤمن نفسه، وأن يكون الله سبحانه وتعالى هو المدافع عنه، الذى يقف أمام أى إنسان يحاول أن يؤذيه، فيحبط كيده ويضعف سلطانه، ويجعل الأذى لا يصل إلى المؤمن أبدا، لأن المدافع عنه هو الله سبحانه وتعالى، ومن يستطيع أن يؤذى مَنْ كان الذى يدافع عنه هو الله ذو القوة المتين، ثم إن هذا الخير الذى يقرب من الله، يجعل الله سبحانه وتعالى يوجد له من كل ضيق فرجا، ومن كل أزمة مخرجا، من حيث لا يدرى ولا يحتسب، هذا بخلاف أنه إذا ضاقت به أسباب الرزق، فإن الله يفتح له من هذه الأسباب أبوابا لم يكن يفكر فيها، أو يصل إليها فكره أو علمه.. هذا فى الدنيا بجانب جزاء الآخرة، وهو الفوز العظيم، وهو الجنة.

إذا كان هذا هو جزاء الخير، وإذا كان ذو القرنين على يقين من ربه الذى علمه الأسباب فهل يبيع هذا الجزاء كله، ويتقاضى بدلا منه أجرا، بلا شك إن قوله: ﴿ قَالَ مَا

مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف : ٩٥]، معناه أنه على علم يقينى بأن جزاء الله عن الخير لا يمكن أن يقابله أجر، ولو كان مال الدنيا كلها، وهكذا اختار ذو القرنين، وهكذا يختار كل مؤمن - إيمانا حقيقيا - الخير على المال، اختار أن يحمى هؤلاء الضعفاء، الذين لا يكادون يفقهون قولا، من الجبارين الذين يفسدون فى الأرض، ويأخذ بذلك أجرا من الله سبحانه وتعالى لحماية الضعيف ونصرته، ذلك الذى لا حول له ولا قوة.

ولكن كيف اختار أن تتم هذه العملية، هل قام هو ببناء السور، أو قام هو بعمل أى نوع من الحماية لهم، أى أدى لهم مهمة تنتهى بانتهائه، وتغيب عنهم بغيابه، لا، بل اختار أن يعلمهم شيئا يعملونه هم بأنفسهم، حتى إذا غاب أو رحل عنهم يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل بذاتهم، أى إنه أضاف إليهم ما أعطاهم قوة ذاتية يستطيعون أن يحموا بها أنفسهم فقال: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾، أى: إنه أشركهم فى العمل، وعلمهم كيف يستطيعون أن يبنوا بينهم وبين هؤلاء القوم الجبارين سدا يمنع الأذى عنهم، أى إنه علمهم كيف يحمون أنفسهم من الظلم الذى يقع عليهم ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا إقامة السد بينهم وبين هؤلاء الجبارين، وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم، وتعلموا شيئا جديدا يحميهم.

وفى هذا حكمة، هى أن الضعفاء مهما كان ضعفهم، فإن الممكن فى الأرض يعلم ويستطيع أن يجعلهم أقوياء، وأن يعينهم على أن ينهضوا بأنفسهم، ويزيلوا أسباب تخلفهم وضعفهم، بشرط أن يشتركوا جميعا فى العمل، لتستمر الدفعة ويتم العمل نفسه، فإذا اشتركوا تعلموا، وإذا تعلموا تقدموا واستطاعوا أن يحموا أنفسهم، وأن يضيفوا إلى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة.

وقبل أن أختم خواطرى عن سورة الكهف، أحب أن أبين أن هذه السورة ترينا من كهوف الحياة ما يجعلنا نفهم كثيرا:

فالفهم الأول: أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا شىء يتم إلا بإرادة الله، ومن هنا فإن الإنسان يجب أن يرجع كل شىء إلى الله سبحانه وتعالى فلا يقول سأفعل كذا، إلا بعد أن يضيف إليها إن شاء الله ؛ لأن الذى يملك عناصر الفعل المستقبلى هو الله سبحانه وتعالى.

وثانى هذه الأشياء: هو نظرة الإنسان إلى الأسباب فالإنسان إذا رزقه الله بمال أو بأرض أو فضله على غيره فى الرزق، فيجب أن يعرف يقينا أن الفضل فى ذلك هو لله سبحانه وتعالى، وألا يغتر بنفسه، ويقول إنما أوتيته على علم عندى، ذلك أن الغرور هو بداية عبادة النفس، وبداية عبادة النفس تبعد عن عبادة الله فالله الذى أعطى يستطيع دائما

وأبدا أن يأخذ، والله الذى وفق يستطيع دائما وأبدا أن يصنع قدره، وأنه بذلك يستطيع أن يفعل كذا وكذا، ولكنه يستطيع فعلا أن يفعل، وأن ينجز بتوفيق الله له، ذلك التوفيق الذى هو أساسه نجاح العمل، والذى لولاه لفشل كل شيء، العمل نفسه مطلوب وواجب، ولكن الغرور ليس واجبا، بل أنا أعمل، والله يوفق ويبارك، ويرزق.

والحكمة الثالثة: أن ظاهر الأشياء ليس فى حقيقتها، الخير والشر لا يمكن أن يحكم عليهما إنسان من ظاهر الأمور، ومن هنا فإننا لا يجب أن نصنع من أنفسنا حكما على ما يحدث ونتقبل قضاء الله بدون أن نبكى حزنا اعتقادا منا أنه شر، أو نطير فرحا؛ لأننا نحسب أنه خير فحقيقة الخير والشر لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يجب أن نتقبل قضاء الله دائما بالرضا، وبأن هناك حكمة مستورة، وما دمنا مؤمنين، فإن الله لا يضيع مؤمنا، ولقد ساق الله لنا سبحانه وتعالى من خلال قصة موسى والعبد الصالح أمثلة عديدة على ذلك.

والحكمة الرابعة: أن هناك أموراً قدرية تقع على الإنسان بدون حركة منه، ولا دخل له فيها، وأن هذه الأمور لا تحدث عشوائيا، ولا تتم هكذا، وإن كانت فى بعض الأحيان تبدو بعيدة عن إدراك عقولنا، فيجب أن نفهم أن كل قدر فى الكون له سبب يعلمه الله سبحانه وتعالى الذى يسبب الأسباب.

وأن القضاء الذى يجرى على الإنسان من الله سبحانه وتعالى هو قضاء مرسوم، وإن بدا لنا فى كثير من الأحيان كأمر عادي، كذلك الذى خرق السفينة وأقام الجدار لا أحد يستطيع أن يفهم سر هذا القدر إلابعد أن يبنه الله سبحانه وتعالى لنا.

وأخيراً فإننا مهما كنا مستضعفين فى الأرض، نستطيع أن نتعلم من أولئك الذين مكنهم الله بأسباب العلم، أو أعطاها لهم، وأن نضيف إلى هذا العلم عملاً يبارك لنا فيه الله.

وأخيراً فإن علينا أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى حين يمكننا من الخير، ومن عمل الخير إنما يمكننا من أحسن عمل يمكن أن نقوم به فى الجزاء وفى الثواب، فى الدنيا والآخرة، وأن الذى يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ليس هو الذى يمكنه من المال أو الجاه أو من النفوذ ولكنه ذلك الذى يمكنه من عمل الخير.

عتاب النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن

بعض المستشرقين الذين لا يحلو لهم إلا الطعن فى هذا الدين، ومحاولة أخذ الأشياء وتأويل معناها بالتأويل غير السليم، يحاولون التشكيك فى هذا الدين فيما يحويه القرآن الكريم من عبارات يعاتب فيها الله سبحانه وتعالى نبيه، ويتخذون من هذه المواقف ذريعة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على صواب في أشياء قام بها، وهم يستخدمون من القرآن الكريم الآيات مثل :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد : ١٩]، ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء]

وقول الله سبحانه وتعالى معاتبا النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ أسرى فى غزوة بدر، وجعل فداءهم من الأسر تعليم المسلمين القراءة والكتابة: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وما قيل عن بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية، إلى آخر الآيات التي يعاتب الله سبحانه وتعالى رسوله فيها، والتى يستخدمها أولئك الذين يريدون الطعن فى هذا الدين كوسيلة للتخطؤ وإظهار أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على صواب.

وقبل أن أبدأ الحديث عن كل هذه الآيات ومغزاها ومعناها، فإن لنا وقفة مع الذين يستخدمون هذه الآيات ؛ هى أنهم يثبتون بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يحدث فيه تبديل ولا تغيير حتى وصل إليهم، فلو حدث فيه تبديل أو تغيير، لحذفت منه الآيات التى تتضمن عتابا من الله لرسوله، أو على الأقل حرفت، ولكن كون القرآن قد جاءنا، وفيه هذه الآيات مع ما يمكن استغلاله فيها وكونها لم تتغير، ولم تتبدل، فهى دليل على أن القرآن قد وصلنا كما أنزله الله سبحانه وتعالى، وتأكيداً للآية الكريمة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

وكون هذه الآيات نزلت فى القرآن الكريم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن من الوحى، ويبلغه للمؤمنين، ومن هنا فإنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن أمينا فى إبلاغ الرسالة، لأخفى هذه الآيات،

وما كان أحد من البشر يستطيع أن يعرف إذا كانت قد نزلت، أم لا، ولو أن هذا القرآن كلام بشر ما كان يحوى عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالبشر من عادتهم لا يتقبلون النقد ويدّعون الكمال، وما من منهج بشرى يلوم فيه صاحبه نفسه أو يعاتبها، بل كل منهج وضعه بشر يحاول أن يوهم الناس بأن هذا هو الكمال المطلق.

ومن هنا فكون هذه الآيات قد نزلت دليل على أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى، وليس كلام بشر، وكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام بإبلاغ هذه الآيات دليل على أنه أمين فى إبلاغ الرسالة التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها، لم يخف منها حرفا واحدا، وكونها موجودة فى القرآن حتى الآن رغم مرور أربعة عشر قرناً على نزوله، دليل على أن كلام الله قد وصلنا كما أنزل بلا تحريف، ولا تبديل، تلك حقيقة هامة يجب أن نذكرها قبل أن نبدأ الحديث فى الموضوع، ذلك أن الذين أرادوا أن يهدموا هذا الدين إنما قد ثبتوه وأثبتوا أن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى وأن نبيه كان أمينا فى إبلاغ رسالته، وأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما أنزله الله.

نأتى بعد ذلك إلى الحديث عن الآيات التى فيها عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله وقبل أن نبدأ أحب أن أجيب على سؤال حول هذا الموضوع، وهو التشكيك فى القرآن الكريم، ذلك أن ما يقوله بعض المستشرقين من أن سورة التوبة هى السورة الوحيدة فى القرآن الكريم التى لا تبدأ بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾.

ويفسرون ذلك بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد نسى لأنه كلام بشر، ولكننى أقول لهم إن سورة التوبة هى السورة التى ذكر الله فيها سبحانه وتعالى أولئك المطرودين من رحمته ومن هنا فلا يمكن أن تبدأ بالرحمة، و ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى قد حجب الرحمة عن هؤلاء الذين تناولتهم هذه السورة الكريمة والتى يبدؤها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣].

ثم يقول: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

ثم يقول: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧].

ثم يقول: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝ ﴾ [التوبة].

ثم يقول تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [التوبة].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

وتمضي الآيات الكريمات لتؤكد أن الله لا يهدى القوم الظالمين فيقول الحق: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

هؤلاء الذين ذكرهم الله فى هذه السورة، ولقد حرصت على أن أورد جزءاً كبيراً منها هؤلاء مُطرودون من رحمة الله، فكيف تبدأ السورة الكريمة بالرحمة وهى تخبرنا بالمطرودين من رحمة الله الخالدين فى عذابه؟

إذن.. فمحمد صلى الله عليه وسلم لم ينس، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تبدأ هذه السورة من دون ذكر رحمته؛ لأنها عن المطرودين من رحمة الله الذين لا نجاة لهم من عذابه.

نعود إلى موضوعنا الأساسى بعد هذا التفسير الذى كان لابد منه للرد على المستشرقين لنتحدث عن عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم.

فالله عاتب رسوله فى القرآن وقال: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

ثم قال سبحانه فى سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾.

كيف يكون الغفران لما تقدم وما تأخر وفى الوقت نفسه يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد : ١٩]، وما الذنب الذى ارتكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

إذا بدأنا الحديث عن معظم آيات العتاب، فهى عتاب على رسول الله فى الإسراف فى الدعوة وتحميل نفسه فوق ما يطيق، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝ ﴾ [طه].

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦].

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم : ١].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣].

ويقول الحق سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢].

ويقول تعالى لرسوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر : ٨].

ويقول الحق للنبى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ ﴾ [عبس].

ويقول تعالى: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٦٨] إلى آخر هذه الآيات التى تحمل عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول الله تعالى: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ [الأنعام: ٦٦].

كل هذه الآيات فيها عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن عتاب على ماذا؟ على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحمّل نفسه ما لا تطيق، ولماذا يحمل رسول الله نفسه ما لا تطيق؟ حبًا فى الله وفى دينه، ورغبة فى أن يدخل الإيمان إلى كل نفس وفى كل قلب، وحب رسول الله لله سبحانه وتعالى وإخلاصه فى دعوته وتفانيه فيها جعله يحمل نفسه ما لا تطيق، ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى رحمة برسوله أن يقول له: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه : ٢]، أى إنك يا محمد تُحمّل نفسك ما لا تطيق فى هذه الرسالة، ونحن لم ننزل عليك هذا القرآن لتشقى نفسك به، ذلك أن القرآن هو بلاغ للناس: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩].

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩].

هنا حدد الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى دينه بعدم الإكراه، ولذلك حكمة بالغة هى حكمة الثواب والعقاب فى أفعل ولا تفعل، فالله سبحانه وتعالى قال: افعل كذا ولا تفعل كذا، وأبان للناس طريق الحق وطريق الباطل، ومن هنا يقتضى عدل الله سبحانه وتعالى أن يتم الاختيار بالإرادة الحرة وبلا إكراه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعث رحمة للعالمين يرى ما ينتظر غير المؤمنين من عذاب عظيم، يراه يقينا ويعرفه، ومن هنا فهو مشفق على غير المؤمنين، يحاول أن يبذل كل ما يستطيع، وفوق ما يستطيع، ليدخلهم إلى رحمة الله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وفى هذا يحمل نفسه فوق ما تطيق.

وقبل أن نبدأ فى النقاش حول هذه الآيات هناك أمران أحب أن أتحدث عنهما:

الأمر الأول: إن الذين يحاولون التشكيك فى الإسلام باستخدام آيات العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما يحكمون على أنفسهم بأنهم مغرضون، ذلك أنك إذا أخذت القرآن، فيجب ألا تستشهد بجزء منه ثم تستبعد جزءا آخر، فالآيات التى نزلت ثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة، فالله سبحانه وتعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وآيات كثيرة فى القرآن الكريم أثنى فيها الله سبحانه وتعالى على رسوله، فهل من العدل أن نتجاهل هذه الآيات ثم نأتى بالآيات التى فيها عتاب، ونحاول أن نأخذها وحدها لتحدد علاقة الله برسوله على طريقة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ٤٣] إن فى هذا محاولة لطمس الحقيقة وإخفائها، وإظهار الشىء بغير حقيقته، ولكننى لن أسترسل فى هذه الناحية.

والأمر الثانى: إن مسألة العتاب على رسول الله، كانت فى ماذا؟ هناك فرق بين العتب علىّ، والعتب لى، والعتب هو لون من اللوم على ما حدث؛ لأن القوانين التى بينى وبينك تمنع حدوثها، وهذا اللوم معناه أولا وقبل كل شىء هو وجود الود بينك وبين الشخص الذى تلومه، ذلك لأنك لا تلوم إنسانا بينك وبينه قطيعة، فالكافر لا يلام على ذنب يرتكبه؛ لأنه ليس هناك بعد الكفر ذنب، ومن هنا فهو لا يعاتب، والعدو لا يلام على ما يفعل لأنك تتوقع من عدوك أى شىء، ومن هنا فمهما فعل فإنك لن توجه إليه اللوم.

يبقى بعد ذلك الذى بينك وبينه ود، وعلى قدر الود يكون اللوم، فإذا كان الود عظيما كان هناك اللوم ولو على شيء صغير، وإذا كان الود بسيطا لا يكون اللوم إلا على الأشياء الكبيرة، فأنت لا تلوم رجلاً تعرفه على هفوة صغيرة ارتكبها، ولكن إن حدث هذا من أخ عزيز عليك جدًا فإنك تتأثر بقدر حبك له، وودك إليه، ومن هنا فأنت تعاتب أخاك على ما لا تعاتب عليه صديقا، وتعاتب صديقك على ما لا تعاتب عليه غريبا، وبقدر الود يكون اللوم على الأشياء الصغيرة.

إذن.. هنا، وعكس ما يريد المشككون، هناك ود عظيم بين الله ورسوله، وهذا الود هو الذى جعل الله يوجه إلى رسوله هذا الكلام، ولكن يوجهه له لماذا؟ هل لشيء فعله ضد قوانين الله، أم رحمة به وخوفا عليه؟

فلنضرب مثلاً يقرب ذلك إلى الأذهان، عندى ولدان ولد مهمل فى دروسه لا يستذكر فأنا أوجه إليه اللوم؛ لأنه أهمل واجبه، وولد آخر لا يترك المذاكرة لحظة واحدة، يمنع نفسه من الراحة والطعام والنوم ويظل يذاكر طوال النهار والليل فأنا أوجه إليه اللوم كذلك، أنا أعتب على الأول؛ لأنه خالف القوانين التى يجب أن يتبعها لينجح، ولكن الثانى لم يخالف هذه القوانين فلماذا أعتب عليه؟ لأنه أسرف فيها، وحينئذ يكون العتب أو اللوم لصالحه دليلاً على شدة الحب له والخوف عليه، حينما أقول له أترك المذاكرة، واسترح قليلا لترفه عن نفسك، فأنا ألومه على شيء أنا أطلب منه أن يعمله، أنا الذى طلبت منه أن يذاكر لينجح، وكنت سألومه لو لم ينفذ كلامى.. ولكننى ألومه الآن لأنه أسرف فى ذلك، أى إن العتب له وليس عليه، ورحمة به وليس عتابا على إهمال ارتكبه.

والآيات التى فيها عتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحمل معظمها هذا المعنى شيء حمل رسول الله نفسه عليه، وهو غير محمول عليه بحكم التشريع، شيء مباح ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح، خرج من السهل إلى الصعب، ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾ [عبس]، أيهما أسهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى جاء وفى قلبه إيمان، أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم، الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الله، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب، إنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها، وهنا تتدخل الإرادة الإلهية، الرسول يترك أمرا سهلا مُيسَّرا، وكلف نفسه بالجانب الشاق، لماذا؟ لصالح الدعوة، هنا يقول له الله: لماذا تترك السهل وتدخل الصعب، إن الله غنى عن هؤلاء جميعا، فيا محمد لا تضيق على نفسك وتحملها المشقة لتهدى من يرفض قلبه الهداية، إنما أنا أريد منك أن تهدى كل قلب يتشوق للإيمان ويهفو إلى الله، وألا تأخذ الطريق الصعب وتضيق على نفسك، وهكذا معظم آيات العتاب.

الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه يقوم الليل ولا ينام، ويُصلّي حتى تتورم قدماه الشريفتان، وتسأله عائشة في عجب، يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلا أكون عبدا شكورا»(١). إذن.. ومع المغفرة التي أعطاها الله له لا يريد إلا أن يعبد الله حق عبادته، ويأبى رسول الله أن يكون مقصرا في مقام الشكر، لماذا؟

إذا نظرنا إلى الإنسان بالنسبة لربه، وقارنا نعم الله عليه، وما كلفه به من الطاعات، لوجدنا أن نعم الله لا تُعد ولا تُحصى، وأن المطلوبات منا لله سبحانه وتعالى محدودة وبسيطة وهنا يحس القلب المؤمن بعطاء الله، وبأن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يكلفنا بقدر ما أعطانا من النعم، لما كانت عبادة الليل والنهار كلها تكفي.

القلب المؤمن يحس أن نعم الله أكثر مما يؤدى عليها من شكر، فيدخل في مقام الود والإحسان، ويقوم الليل، ويصلي والناس نيام، صلاة لم يكلف بها في أصل التكليف يسرف في الطاعة، وفي المناجاة، وفي الشكر، وفي قراءة القرآن، وهو في كل هذا في نظر نفسه مقصر؛ لأن نعم الله عليه أكبر من هذا كله، هل يكون مثل هذا الإنسان مخالفا لما أمر به الله، أبدا، ولكن - وهنا إشفاق الله سبحانه وتعالى على رسوله، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحمل نفسه مسئولية أولئك الذين لم يؤمنوا، ويحاول أن يهديهم بقدر طاقته من الإيمان ويشقى ويحرم نفسه من متع الدنيا كلها، يأتي الله سبحانه وتعالى فيقول لنبيه: يا محمد ليس عليك ذنب، إن لم يؤمنوا فلا تحمل نفسك أشياء لم يكلفك الله بها، وكفاك أنك بلّغتهم الرسالة، وأديت الأمانة، وأبنت لهم الطريق.

هذا هو عتاب الله لرسوله، عتاب عن ود، وحب، ورحمة من الله سبحانه وتعالى، فيقول الله للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ويقول: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]؟!

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[التحريم: ١].

كلها آيات تمثل حب الله لرسوله، حبا عظيما، ورحمة بلا حدود، ويقول الحق تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، لقد أبلغتهم

(١) روى البخاري [٤٨٣٧]، ومسلم [٢٨٢٠/ ٨١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا».

رسالة ربك فلا تجعل حبك لله وحبك لهدايتهم إلى طريقه يدخل الحسرة إلى نفسك.

هذه هي آيات العتاب التي يتجلى بها حب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

بقي أن نتحدث عن آيتين يكثر حديث المستشرقين عنهما:

الآية الأولى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وفي المقام نفسه تكمل المعنى آية أخرى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾ [الفتح]، هنا في الآيتين يطلب الله من رسوله الاستغفار، والاستغفار معناه طلب المغفرة، فما هو الذنب، وما هو طلب المغفرة؟

الآية الكريمة في سورة غافر وهي تبدأ كما يلي: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٥].

والاستغفار هنا إذا دققنا في هذه الآية مرتبط بالتسبيح، أي إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

ومن هنا فإن سياق الآية يدل دلالة واضحة على أنها كلها تتعلق بالعبادات، وأن ليس فيها ذنب يجازى عليه بالعقاب بل هي توجيه من الله تعالى بأن الاستغفار للذنوب والتسبيح بالعشي والإبكار، هي من المكملات للعبادة والطاعة والقرب من الله سبحانه هنا ليس مقام لوم، وليس مقام مؤاخذة، ولكنه مقام زيادة القرب بالاستغفار والتسبيح. والشهادة أنه لا إله إلا الله، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، في مقام العبادة أيضاً.

كل ما يقال عن أن هذه الآية هي في مقام اللوم غير صحيح، ذلك أنها في مقام العبادة وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى، والرسول كان يستغفر للمؤمنين، وفي حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يارسول الله؟ قال: إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1].

إذن.. فطلب الرحمة والمغفرة من الله مطلوب من كل مؤمن مهما بلغت درجة إيمانه ومكمل للعمل الصالح مهما كان هذا العمل الصالح مقبولا عند الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشرع لنفسه ولكنه يشرع لأمته، ومن هنا، فإنه صلى الله عليه وسلم وهو القدوة كان يحرص على أن يؤدى ما يجب، أو ما يجب على أمته أن تقتدى به، حتى ولو كان هذا العمل قد أعفاه الله منه، والله سبحانه وتعالى غفر له ما تقدم من

---

(١) روى البخاري [٥٦٧٣]، ومسلم [٢٨١٦/ ٧٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يُدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة».

ذنبه وما تأخر ولكنه كان يقوم الليل ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان ويستغفر الله فى اليوم مائة مرة ؛ لماذا؟ لأنه هو القدوة الذى ستتبعه الأمة المسلمة كلها.

ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة هى فى مقام العبادة والقرب من الله وليست فى مقام اللوم كما يدعى المستشرقون الذين أخذوا جزءا منها فقط ليشوهوا به هذا الدين.

على أننى رغم ما قلت سأناقش رأيهم لأريهم أنهم على ضلال.

وقبل أن نمضى يجب أن نحدد ما هو الاستغفار؟ الاستغفار هو نوع من الإيمان الذى يحس الإنسان فيه بالذلة لله سبحانه وتعالى، ومتعة المؤمن العزة أمام غير الله، والذلة لله، ولا تجد إنسانا ليس فى قلبه إيمان يستغفر الله سبحانه وتعالى، بل إنه قد يكون مستعدا لأن يذل نفسه لبشر، وأن يرتكب فى سبيل ذلك المعاصى وما حرمه الله، ولكن عندما يأتى إلى الاستغفار تأخذه العزة بالإثم، ولذلك لا يستغفر الله، ويطلب منه مغفرة الذنوب إلا قلب مؤمن بالله سبحانه وتعالى، ذلك الذى يجد لذة الخضوع لله، والاعتراف بعظمته وقدرته فى الاستغفار وطلب المغفرة منه.

فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

هذه الآية الكريمة توضح لنا معنى الاستغفار، وكيف أنه لا يحدث إلا إذا كان الإنسان فى قلبه إيمان، ومعنى الآية الكريمة أنه ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لأننى أرسلتك رحمة للعالمين، وحيث إن رحمتى سبقت عذابى، لذلك فأنا لا أعذبهم وأنت فيهم الرحمة المهداة، ثم تمضى الآية الكريمة لتشرح ماذا سيحدث بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، وهنا يكمل الله الحديث فيقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، إذن.. بعد انتقالك يا محمد إلى جوار الله فإن الله سبحانه وتعالى لن يصيب بعذابه المستغفرين، لماذا؟ لأن الاستغفار هو الخضوع والخشوع لله، لا يوجد إلا فى قلب مؤمن، ومادام الإيمان موجوداً فى القلب فرحمة الله تحيط بعبده.

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى لنا قيمة الاستغفار عنده، وكيف أنه يمنع العذاب، ويمحو الذنوب، ويمضى الله سبحانه وتعالى فى بيان فضل الاستغفار إليه فيقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

إذن.. فأولى مراحل المغفرة وأهمها هى الاستغفار، والخضوع لله، والخشوع لله، من أقوى علاماته الاستغفار، والقلب غير المؤمن ليس فيه رحمة ولا مغفرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو أمته دائما للاستغفار. وكان يقول صلى الله عليه

وسلم: «استغفروا الله فإني أستغفره في اليوم مائة مرة»[١]. فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله فى اليوم مائة مرة فكيف يكون حالنا نحن؟!

إذن.. فالاستغفار مرتبة من مراتب الإيمان والخشوع لله سبحانه وتعالى، لا تدخل إلا قلب مؤمن، ولا ينطقها بصدق إلا إنسان يخشى الله، ولا يهرع إليها إلا من يخاف ربه ويخشى يوم الحساب، ومن هنا فإن الاستغفار يوجد فى قلب كل مؤمن، ويكفى أن تذهب فى يوم من الأيام إلى الكعبة الشريفة وتنظر إلى وجوه حجاج بيت الله الحرام الذين جاءوا من أقصى الأرض ليؤدوا فريضة من فرائض الله، وتسمعهم وهم يستغفرون الله سبحانه وتعالى بكل لغات الأرض، فيفيض الله عليهم من رحمته، تنزل الدموع من عيونهم، ويجهش حتى أقوى الرجال بالبكاء عندما تمس قلبه رحمة الله، حتى ذلك الذى يمكن أن يواجه أحداث الدنيا كلها، يأتى إلى هذه البقعة الطاهرة نادما مستغفرا من ذنبه ويتجشم الصعاب والمشاق ليستغفر الله، فى مكان فضله الله سبحانه وتعالى واختاره بيتا له عسى أن يقبل الدعاء، ويغفر الذنب، وتفيض الرحمة.

إذن.. فالاستغفار جزء هام من الإيمان، ومن لا يستغفر بقلبه فهو محروم من نعمة كبرى من نعم الإيمان، فالله سبحانه وتعالى حين يأمر رسوله بالاستغفار، والرسول قدوة لكل المسلمين، وهو قدوة حسنة، عندما يأمره بذلك فإنه من خلاله يأمرنا جميعا أن نستغفر لذنوبنا، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بالاستغفار، فهذا أمر لنا بالإكثار من طلب المغفرة، والغفران من الله، لنمحو ذنوبنا ولنكون دائما خاشعين لله مدركين أنه إذا غرتنا قوتنا على ظلم الناس فلنتذكر قدرة الله علينا وحينئذ نهرع إلى الاستغفار، ونرفع الظلم ونتوب إلى الله وتخشع قلوبنا.

إذن.. فالاستغفار يحرص الله سبحانه وتعالى على أن يبقى بينه وبين المؤمن؛ لأن فى هذا تذكيراً دائماً بقدرة الله وقوته وضعف العبد وعجزه، وفى هذا تذكير لنا بالله كلما نسينا وبالحساب كلما أخذتنا الدنيا بعيداً عما أمرنا الله به، وخضوعا وخشوعا للقدرة الكبرى والقوة الكبرى التى نعبدها وهى الله سبحانه وتعالى، قلب مستغفر لله يخلق بينه وبين الآثام حجابا، قلب مستغفر لله لا يمكن أن يمضى فى إثم ارتكبه أو ظلم قام به يتذكر الله فيستغفر، ويعدل عن الظلم ويتوب عن الإثم، قلب يستغفر الله لا يعذب صاحبه؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

---

(١) روى الطبراني فى المعجم الكبير [٣٠١/١/٨٨٦] عن رجل من المهاجرين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يا أيها الناس استغفروا الله وتوبوا فإني أستغفر وأتوب إليه فى اليوم أو كل يوم مائة مرة أو أكثر من مرة».

هذه هى نعمة الاستغفار، وهى نعمة لا تحس إلا فى القلب المؤمن، ولا توجد إلا فى النفس الخاشعة، ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ [النصر].

التسبيح والاستغفار هما خشوع لله، وخضوع لله، وذل لله، يعشقه القلب المؤمن ولذلك ارتبطت هذه الآية بالفتح، وفى الوقت نفسه لم ترتبط بالذنب، أى إن التسبيح والاستغفار كليهما حمد لله، كلاهما يقربان من الله، وكلاهما ينقى النفس من الدنايا ويقربها من الجنة.

ولكن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، فما هو الذنب الذى اقترفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر له، لكى نفهم هذا يجب أن نضع نصب أعيننا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين، ومن هنا فإنه رحمة وأن الله سبحانه وتعالى هو القوى القادر العزيز الجبار، الذى يمهل ولا يهمل، فإذا أخذ كان أخْذه أَخْذَ عزيز مقتدر، رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاول بقدر طاقته.. وفوق طاقته مع الكفار والمنافقين عسى الله أن يهديهم، ويعذب نفسه من أجل ذلك ويشقى والله سبحانه وتعالى يقول له: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ٢]، يأتى المنافقون ويعتذرون لرسول الله عن الجهاد فيأذن لهم، كل بعذره.

ويموت المنافقون الذين حاربوا الله ورسوله؛ وعادوه وآذوه، فيصلي عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما استودع في قلبه من رحمة بالناس؛ وهنا يتنزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] هل صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذنب، إنها إفراط فى الرحمة، وإجهاد لرسول الله، يتعب نفسه ويطلب الرحمة من الله حتى لأولئك الذين رفضوا الهداية، بل إن رسول الله يطلب لهم المغفرة فيرد الله سبحانه وتعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠].

هنا تتجلى أسمى معاني الرحمة التي أهداها الله إلى الأرض، وكأنه صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء ويقول: يارب أنا رحمة أرسلتنى إلى عبادك، إلى خلقك، فلترحم بى حتى أولئك الذين رفضوا الإيمان، حتى أولئك الذين رفضوا الهداية، ولكن الله سبحانه وتعالى قد حرم من رحمته المشركين والظالمين والفاسقين وبنزول الآية كأن الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: يا محمد أنت رحمة للمؤمنين، وأنت رحمة لهذا العالم كله بأن تريهم الطريق إلى الله، إلى طريق الهداية والنور، أن تبين لهم طريق الحياة

الآمنة المطمئنة الطيبة التى رسمتها لعبادى، وكلفتك بإبلاغها لهم، من اتبعها فله الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بى ورفض اتباعها فسيلقانى وسيلقى جزاءه فلا تجهد نفسك يا محمد فى طلب الرحمة لأولئك الذين لم يؤمنوا، ولا تستغفر لهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فإننى أنا القوى القادر، وسأجزيهم بما كانوا يفعلون.

رسول الله هنا، أتعب نفسه فى الدعوة، وفي طلب الرحمة والمغفرة فوق مما كلفه الله، والله سبحانه وتعالى يطلب إليه أن يستغفر من ذلك؛ لأن التجاوز فى هذا هو تجاوز فى أمر من أمور الله، ولو كان هذا بالزيادة، فهل يعتبر هذا ذنبا؟ وهل يعتبر تشريع الله لرسوله إلّا جزءا من الرسالة؟ هنا الرحمة المطلقة تحاول أن تصل حتى إلى قلب غير المؤمن لأنها تعرف العذاب الذى ينتظره، ولكن الله تعالى يرد: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٣] ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم.

هنا يأتى بعض الناس فيقول: إن تجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة وفى طلب الرحمة وفي إتعاب وإجهاد نفسه للهداية لمن لا يريد الهداية يتعارض مع الآية الكريمة: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم: ٣]، أى: إنه حتى فى إجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فى الدعوة قد نطق عن هوى فى نفسه وهو محاولة للوصول بالعاصين للإيمان رغم أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض عليه ذلك، إذن فقد اتبع هوى فى نفسه وهو الإسراف فى الدعوة وإجهاد نفسه فيها، وإشقاء نفسه بها، رغم أن الله لم يلزمه بذلك.

أقول لهؤلاء جميعا: إن معنى قول الحق: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم: ٣]، أنه ما دام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى رسوله الحق، وبين له الطريق فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع هذا الحق ولو كانت نفسه تهوى شيئا آخر، ومتى قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾، فإنه بعد نزول هذه الآية وتحديد أمر الله لا يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا بالصلاة على أحد من الكفار قد مات ولو كانت نفسه تهوى ذلك، وبعد نزول الآية الكريمة: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ ﴾ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يترك رجلا جاء يطلب الهداية لينصرف إلى عظيم مهما كان شأنه أخذته العزة بالإثم، ولو كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تهوى أن يعز الله الإسلام بهذا الرجل العظيم فإنه لا يتبع هوى النفس أبدا ولكن يتبع ما أوحى إليه، ومن هنا فإن الآية الكريمة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم متى أوحى إليه بأمر من الأمور ومهما كانت نفسه تهوى فإنه لا يمكن إلا أن يتبع هذا الأمر ولا يجعل النفس تميل مع هواها ضد ما أوحى إليه مهما كان.

ومن هنا فإن الآية الكريمة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] نزلت، فى عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب له الهداية والوحى كما قلت كان بين الله ورسوله، ولكن عندما نزلت الآية الكريمة تلاها رسول الله رغم أنها نزلت فى عمه، وأنها تتوعده بالنار والعذاب الأليم، وهكذا فى كل حكم من أحكام الدين لا يتبع رسول الله هوى النفس أبدا، إنما يتبع الحق وما أُنزل مهما اصطدم هذا الحق بقوة وعنف مع هوى النفس.

وننتقل بعد ذلك إلى الآية الثانية، وهى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء].

هذه الآية الكريمة يفسرها بعض المستشرقين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد يستجيب لدعوة الكفار، الذين قالوا نعبد آلهك عاماً وتعبد آلهتنا عاماً، ولكن كل ما يقوله المستشرقون فى هذا الموضوع غير صحيح، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن إليهم ولم تمل نفسه إلى ما يقولون، ولنتأمل معنى الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾ «لولا» هنا حرف امتناع، أى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثبت من الله، ومن هنا فإن كل ما يأتى بعد ذلك فى هذه الآية ممتنع بحرف لولا إذن.. فالله سبحانه وتعالى يقول: إنك مثبت منا يا محمد، وهذا التثبيت يمنع عنك أى انحراف عن دين الله أو خروج عنه. ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ كِدتَّ ﴾ معناها مقاربة الفعل بدون إتيانه، أى إنك لم تفعل ذلك، وإذا أردنا المعنى اللغوى نقول قرب أن يفعل فالفعل منفى على الإطلاق، بل إن القرب من الفعل منفى بكلمة لولا، ماذا كان يحدث لو لم نثبتك وتركناك لفطرتك يا محمد بدون مدد من السماء، حتى لو لم نثبتك بفطرتك السليمة ما كنت تفعل هذا، وإن كانت البشرية بدون إمداد من السماء لأى إنسان تجعل فيه الميل إلى ذلك، لكنك مثبت من السماء، ومثبت بفطرتك السليمة، إذن فامتناعك عن أن تركن إليهم، أى: إن تقترب بخاطرك بدون فعل مما يقولون ممتنع بتثبيتك من السماء وبفطرتك السليمة.

ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾، وهنا وقفة، من المقصود بضعف الحياة وضعف الممات؟ هل المقصود هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، الممتنع عن ذلك بمدد من السماء وبفطرته السليمة؟ مادام مدد السماء يمنعه وما دامت فطرته السليمة تمنعه - فالآية الكريمة لا تنطبق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنها تنطبق على من يفعل ذلك، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعله ولم يقترب منه.

ولكن هناك حكمة كريمة لورود هذه الآية، والحكمة هنا واضحة، الله سبحانه وتعالى يختار من عباده من يشاء، ويعطيه من المنزلة ما يشاء، ثم يأتى بعد ذلك إغراء الدنيا وكيد الشيطان، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا فى هذه الآية إنه على قدر القرب منه سيكون الجزاء، ولننظر ماذا قال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [المائدة]

الحواريون هم الذين آمنوا مع عيسى ابن مريم وهاجروا معه وجاهدوا فى المسيحية، أرادوا أن يروا آية من آيات الله، فاستجاب الله لدعاء رسوله عيسى ولكنه قال: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى أراهم آية بينة من آياته؛ ولذلك يكون حسابهم غير حساب من لم يُرِه الله آية من آياته.

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا، إنه بقدر القرب من الله يكون الحساب، وحساب الذى يرى آية من آيات الله يكون أدق من حساب العادى، ولذلك يأتى الله تعالى ليقول لنساء الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢] لماذا؟ لأن قربكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل لكن حسابا آخر وميزانا آخر فامتنعن عن موطن الشبهة تماما، فالذى يدخل فى مقام الود من الله له مقاييس بقدر ما فتح الله عليه من آياته ومن فيضه.

إذن.. فمعنى الآية الكريمة التى جاءت بعد: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، أنه يا محمد فلتعلم أمتك كلها، وليعلم العالم أجمع أن من هو قريب منى، وأكشف له عن آياتى، ثم يعصى ويبتعد: له حساب أقسى كثيرا من ذلك الذى لم أكشف له عن هذه الآيات، وحكمة الله سبحانه وتعالى جاءت فى بداية الآية: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾، و «لولا» حرف امتناع ومعنى ذلك أن كل ما بعدها ممتنع لوجود التثبيت من الله.

إذن.. فمعنى الآية الكريمة: أنت يا محمد مثبت من السماء، ومثبت بفطرتك السليمة ولكنّ الذى يقترف ذنبا من عامة الناس له مقياس فى الحساب، والذى يقترف ذنبا ممن نُرِيهُ آياتنا يضاعف له العذاب، مقام الود من الله يدقق المقاييس، وهذه الآية الكريمة التى طلب فيها عيسى ابن مريم من الله أن يُنزل عليهم مائدة من السماء، لقد رأوا المائدة

تنزل من السماء، آية محسوسة ملموسة اختص المسيح والحواريون برؤيتها ولذلك قال الـلـه تـعـالـى: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

إذن.. فالآية الكريمة ليس المقصود بها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وافق على ما طلبه الكفار من أن يعبد آلهتهم عاما، ويعبدوا الله عاما، ولكن المعنى أنك يا محمد مثبت من لدنا فهذا ممتنع عنك تماماً أن تميل إليهم ولكن القرب منى وكشف آياتى لمن أريد يجعل أولئك الذين فى مقام الود والكشف من الله سبحانه وتعالى، لهم عذاب مضاعف لأنهم رأوا آيات الله ثم كفروا بعد رؤيتهم لآيات الله.

الآية ليست لوما لرسول الله ولا أخذا عليه وإلا لما ابتدأت بحرف امتناع بمنع وقوع الفعل ولكنها شرح لكل نفس بشرية مؤمنة، بأنه على قدر الود يكون الحساب، وأن من يكفر بعد أن رأى آيات الله وعرفها فإن حسابه ليس بميزان كحساب باقى الناس، ولكنه بميزان أدق وحساب مضاعف.

هذه هى بعض الخواطر التى أردت أن أشرحها حول عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم، فالعتاب كان على الإسراف فى الاجتهاد للدعوة، والحزن على غير المؤمنين ومحاولة الاستغفار للكفار أو الصلاة عليهم بعد موتهم، وفى ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رحمة للعالمين يجهد نفسه فى هذا، ويحملها ما فوق طاقتها فنهاه الله عن هذا وقال له، استغفر لهذا الإسراف الذى قمت به ولم يكن مطلوبا منك.

أما مسألة ميل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفار وأخذ الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] على أنها لوم للرسول فالرسول لم يمل للكفار قط، وإلا لما بدأت الآية بحرف الامتناع لولا ! ليؤكد الله تعالى امتناع حدوث هذا الشىء، ثم ليخبرنا أنه بقدر الود إلى الله والقرب منه وكشف الله آياته لعباده يكون الحساب للذى يضعه الله فى منزلة أعلى ويريه آياته إذا كفر بعد ذلك يكون حسابه ضعف عامة الناس أو كما قال الله لعيسى عليه السلام والحواريين: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

على أن الله سبحانه وتعالى كان دائماً يثبت رسوله كلما ذهبت نفسه حسرات على عدم إيمان الناس، وعدم استجابتهم للدعوة، وإشفاقه عليهم وما سيلقونه فى الآخرة، وفى هذا لابد من الحديث عن معجزة الإسراء والمعراج.

❁ ❁ ❁

معجزة الإسراء والمعراج[1]

معجزة الإسراء والمعراج تختلف عن المعجزات التى سبقتها فى المفاهيم والمعنى، وفى جوانب كثيرة، ولعله ما من معجزة حدثت لنبى أثارت جدلا مثل معجزة الإسراء والمعراج ذلك أن المعجزات السابقة كانت تخرق قوانين الكون، وكما بينت فى الجزء الأول من كتاب معجزة القرآن أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون لم يتركه هكذا عشوائيا، بل خلق كل شىء بقانون دقيق: الأرض لها قوانين، والشمس لها قوانين، والنجوم لها قوانين والماء له قوانين، وكل خلق من خلق الله سبحانه وتعالى له قوانين.

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ويتركه لهذه القوانين، بل هو قائم على خلقه إلى يوم الدين، ومن هنا فإن الله وهو القيوم مادام قد خلق هذه القوانين وأوجدها، فهو وحده القادر على أن يخرق هذه القوانين لمن يشاء من عباده، وهذه هى المعجزة، والمعجزة تتم لتثبيت المؤمنين فى حالات إيمانية معينة يواجه فيها المؤمنون بالله بمحنة شديدة إرادة الله سبحانه وتعالى لتحدث معجزة تثبت الإيمان فى القلوب، فتنصر المؤمنين على الكافرين.

على أن هذه المعجزات كلها معجزات مشهدية، أى إنه يشهد حدوثها مع رسول الله عدد من المؤمنين الذين يريد الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم، وهنا الاختلاف بين معجزات الرسل، ومعجزة الإسراء والمعراج، ذلك أن المعجزات السابقة حدثت أمام جَمْع من المؤمنين، وهى معجزات كونية، أى إنها خرق قوانين الأرض، أما معجزة الإسراء والمعراج فقد حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، وخرقت له فيها قوانين السماء، وهنا الفارق الكبير، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو البشر الوحيد الذى أسرى به الله سبحانه وتعالى بالجسد من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء وهو البشر الوحيد الذي فتحت له أبواب السماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى بالجسد والروح معا.

على أن بعض الناس يجادل فى هذه النقطة ؛ وهى مسألة الإسراء والمعراج تمت بالجسد والروح، بينما الأقرب إلى العقل والمنطق أن تكون قد تمت بالروح وحدها، وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما رأى وهو نائم، كما يرى أى إنسان أشياء

(١) راجع كتاب: شرح حديث الإسراء والمعراج لفضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

فى الحلم وأنه لا يجب أن يتعب العلماء أنفسهم فى نقطة الإسراء بالجسد مادامت تصطدم مع العقل والمنطق، والإسراء بالروح لا يقلل من قيمة المعجزة، وإلى هؤلاء جميعاً أحب أن أقول: إن مسألة الإسراء بالجسد مسألة أساسية، لماذا؟ لأننا لا يمكن أن تطبق العقل والمنطق على قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى، فإذا كان اللّٰه هو الفاعل فلا تقول إن ذلك أقرب إلى العقل، أو أبعد عن العقل، بل هنا يتوقف حكمنا بالمنطق والعقل لأن قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى فوق كل العقول.

ومن هنا فإننا إذا حاولنا أن نضع قيودا لمعجزة الإسراء والمعراج، ونقول: إنها أقرب إلى العقل أن تتم بالروح بدلاً من أن تتم بالجسد إلى آخر ما نقول فى هذا الشأن، فإننا بذلك نضع قيودا على قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى فى أن يفعل ما يشاء، وهنا الخطأ، ذلك أننا حين ننقل الأمر من قدرة البشر إلى قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى فلا يجب أن نقيس هذه القدرة بقدرة العقل البشرى مهما كانت، فإذا قال لى أحدهم إنه أقرب إلى المنطق والعقل أن يتم الإسراء والمعراج بالروح، أقول له: إنك تحاول أن تضع على قدرة اللّٰه قيودا من صنع عقلك والمخلوق لا يستطيع أن يقيد قدرة الخالق، وفرق كبير بين قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وقوانينه، وبين قدرة العقل البشرى الذى أعطى إمكانية اكتشاف هذه القوانين وفهمها والانتفاع بها، فالقانون الأرضى يخرج من علم اللّٰه إلى علم البشر كما سبق أن أوضحت، والله سبحانه وتعالى أعطى العقل القدرة على الاستفادة بهذا القانون واستخدامه لماذا؟ لأنه سخر كل ما فى السماوات والأرض لخدمة الإنسان ونفعه.

ومرة أخرى أقول، إن المعجزات الحسية التى تتم، هى معجزات لتثبيت الإيمان، فى وقت يزلزل فيه المؤمنون، فيأتيهم من السماء ما يثبتهم، وهى معجزات تحدث فى وقتها، وتنتهى ولا تتكرر، من رآها صدقها، ومن لم يرها يمكن أن يصدقها، ويمكن ألا يصدقها، ولو أن هذه المعجزات لم ترد فى القرآن الكريم، ويخبرنا اللّٰه سبحانه وتعالى عنها، لو أنها وردت فى كتب التاريخ مثلاً، لكان من الممكن أن يصدقها إنسان، ولا يصدقها إنسان آخر، كل حسب تفكيره وقدراته العقلية، ولكن ورودها فى القرآن الكريم جعلها صادقة ثابتة، يقينية.

ولكن معجزة الإسراء والمعراج، تختلف عن هذه المعجزات كلها. فهى لم تقع على مشهد من المؤمنين، تثبيتا لإيمانهم، بل وقعت لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وحده ومن هنا لم يكن الهدف منها كالمعجزات الحسية الأخرى تثبيتا للإيمان، بل إن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حين أبلغ الناس بها لم يصدقه عدد منهم.

إذن.. لماذا كانت معجزة الإسراء والمعراج - ما دامت تختلف عن معجزات الرسل الأخرى - فى تثبيت الإيمان، كانت لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، للتبليغ عن اللّٰه سبحانه وتعالى، فى أهم أركان الإسلام، وهى الصلاة التى فرضت من اللّٰه سبحانه

وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، أى بلا وحى، تعظيما لشأنها، وإجلالاً لقدرها حيث إن الله سبحانه وتعالى قد جعلها الفرض الوحيد الذى لا يجوز لإنسان أن يتركه أبدا فصوم رمضان مثلاً مباح تركه للمسافر والمريض، على أن يصوم أياماً أُخر، وغير القادر على أن يطعم مسكينا، والزكاة مثلاً ليست مفروضة إلا على من له مال، أما من لا يملك مالاً أو المستحق للصدقة مثلاً، فلا زكاة عليه، والحج لمن استطاع إليه سبيلا، إلا الصلاة فى الحرب والسلم، وقت المعارك، وفى ميادين القتال، وقت المرض ووقت الصحة، وقت القدرة على الحركة.. والإنسان يستطيع أن يصلى وهو نائم، إذا كان المرض يقعده عن القيام، وهو جالس إذا كان المرض يقعده عن السجود والركوع، ولكن ترك الصلاة أمر لم يجعل له الله سبحانه تعالى بديلا، ولم يرفعه عن عباده، ويجعل بدلا منه فداء، وفرضه وقت السفر، ووقت المرض، وجعل فيه من التيسيرات ما يمكن كل إنسان من أداء الصلاة فى الحالة التى يكون عليها، فأجاز الجمع بين الصلوات فى السفر، إلى آخر ما نعرفه من أحكام الصلاة.

إذن.. فالصلاة التى هى صلة بين العبد وربه، لا يجب أن تنقطع أبدا، وكل وقت له ميعاد، وله أداء، ولعظم شأن الصلاة، ولكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولكونها صلة العبد بالله، ولكونها خشوع العبد لخالقه، فقد فرضت مباشرة من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم، وفرضت فى أكرم مكان عند سدرة المنتهى، فرضت فى مكان الرقى، والقرب من الله سبحانه وتعالى بحيث لا يستطيع جبريل عليه السلام أقرب الملائكة لله أن يصل إلى هذه المكانة، بل إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله عندما وصل إلى سدرة المنتهى، وطلب منه أن يتقدم، قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا تقدمت أنا احترقت، وإذا تقدمت أنت اخترقت، ومعنى ذلك أن نور الله سبحانه وتعالى فى هذا المكان بالذات لا يستطيع أن يتحمله حتى أعظم الملائكة، المكان عظيم وجليل، يتناسب مع جلالة ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عبده، ومن هنا نستطيع أن ندرك القيمة العظمى للصلاة كركن من أركان العبادة.

على أننا قبل أن نستطرد فى هذا الحديث ونبين مدى اختلاف المعجزة، فإنما تقفز إلى أذهاننا عدة تساؤلات.

السؤال الأول: لماذا كان الإسراء والمعراج، ولم يكن معراجاً فقط؟ أى لماذا أسرى الله برسوله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بعد ذلك عرج به إلى السماء؟

إن فى ذلك حكمة تقتضيها المعجزة، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عليه أن يبلغ ما كلفه به ربه، والله سبحانه وتعالى كلف رسوله، ليس أمام جمع من الناس على مرأى من أحد من أمته، ولكنه كلفه بينه وبينه، ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه

وسلم يكون في هذه الحالة أمينا في الإخبار عما أبلغه الله به، أى إنه يكون وسيلة فى أمر يريد الله أن يعرفه لخلقه، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الإسراء مقدمة للإيمان بالمعراج.

الإسراء آية أرضية من مكة إلى بيت المقدس، والمسافة من مكة إلى بيت المقدس فى ذلك الوقت لم تكن أمرا مستحيلا، بل كانت القوافل تقطعها فى أيام أو أسابيع، المهم أنه كان يتم السفر من مكة إلى بيت المقدس، مهما اختلفت الوسيلة، إذن فالمعجزة هنا فى الإسراء فى الزمن وحده، معجزة الزمن هنا هى المقصودة، فالله سبحانه وتعالى لا يُحده زمان ولا مكان، رسول الله أسرى به، ثم صعد إلى السماء ثم عاد فى الليلة نفسها، معجزة الزمن هنا جعلت الناس لا يصدقون، فأخبرهم رسول الله بالقوافل القادمة، وبأشياء رآها على الأرض خلال الإسراء به من مكة إلى بيت المقدس، والعودة، ووصف لهم بيت المقدس أى إنه أعطاهم آيات أرضية حسية مشهودة على المعجزة، وكان هذا مقصودا؛ لأنه متى أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات، وهذه المعالم التى رآها فى الطريق بين بيت المقدس ومكة، ثم بعد ذلك تأكدوا من أنها صحيحة، فلاشك أن هذا يصبح دليلا على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون فصعد إلى السماء، إذن يكون ما علموه من آيات أرضية، أو دلائل أرضية، دليلا على صدق ما علموه مما حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إلى السماء.

فالإسراء معجزة، المراد بها الدليل الأرضى، على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق قوانين الكون لرسوله، وأسرى به من مكة إلى بيت المقدس فى زمن وجيز، أو فى لا زمن ويكون فى هذه الحالة قد تأكد لهم أن الله قد خرق قوانين الأرض لرسوله، مادام الله سبحانه وتعالى قد خرق له قوانين الأرض، فهو قادر على أن يخرق له قوانين السماء، فإذا أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بشىء حدث، فلهم أن يصدقوا المعجزة، ولا يشكوا فيها.

إذن.. فالإسراء كان مقدمة أرضية للتثبيت، وللدلالة على صدق ما حدث طبقا لمقاييس العقل البشرى، ولكن بعض الناس يأتى الآن ويقول، إن الإنسان يستطيع أن يسافر الآن من مكة إلى بيت المقدس فى أقل من نصف ساعة مثلاً، وأنا أقول لهم: إن هذا لا يمس المعجزة، فمعجزة الله تبقى معجزة خالدة مهما تقدم العلم، فعيسى عليه السلام مثلاً كان يبرئ الأكمه والأبرص، ولكنه كان يبرئه بلمسة من يده، والطب تقدم الآن، وأصبح الطبيب باستخدام الدواء ربما يستطيع أحد من البشر بإبراء الأكمه والأبرص، لكنه لن يستطيع بمجرد لمسة كما كان يفعل عيسى، كذلك المعجزة بالنسبة لمحمد عليه السلام قد يستطيع إنسان أن يتخذ وسيلة ما ليقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس فى زمن قياسى، ولكنه لن يستطيع أبدا أن يقطعها بجسده مجرداً، فتلك معجزة

من الله لن يصل إليها بشر، لا يستطيع إنسان أن يطير هكذا وحده في الهواء، ويقطع أي مسافة في لحظات، كما حدث لمحمد عليه السلام.

إذن.. فالمعجزة هنا خالدة، باقية في طريقة حدوثها، ولا يتأتى لأحد من البشر أن يصل إليها.

يبقى بعد ذلك سؤال هام، لقد كلم الله موسى عليه السلام، وهو على الأرض، فلماذا أسرى بمحمد عليه السلام إلى السماء ليفرض على عباده الصلاة؟ ولماذا لم يكلم رسوله وهو على الأرض، كما حدث لموسى؟

إن المعجزة الأولى وهى الإسراء، تمت كآية أرضية، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورَوى ما رآه بين مكة وبيت المقدس، رواه كآية أرضية ليقرب إلى أذهان البشر الآية السماوية التى حدثت، فإن كان قد صدق فيما رواه عن القوافل، والمشاهد التى مر بها وهو يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فإن ذلك يدل على صدق روايته عن المعجزة الكبرى، ويؤكد لمن يروى له أنها حدثت.

وهكذا كان الله رحيماً دائماً بالعقل البشرى، فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر غيبا هو فوق قدرة العقل البشرى، وفوق طاقة البشر، إنما يأتى بشىء قريب إلى فهمها، ليستطيعوا استيعاب هذا الشىء القريب، أن يثبت إيمانهم، ولا يسهل خديعتهم من غير المؤمنين الذين يحاولون التشكيك فى هذا الدين، فنجد الله سبحانه وتعالى مثلاً، وقد كان فى علمه أن الناس سيعبدون العلم، مبهورين بما يحقق، ناسين قدرة الله سبحانه وتعالى، يقول لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣] وجاءت الآية الأرضية فوصل العلم بالإنسان إلى القمر، ولكنه لم يستطع أن يخلق جناح ذبابة، وهناك آيات أخرى عن الموت والحياة والبعث تقرب إلى الأذهان كل هذا وتؤكده، ليكون دليلاً دامغاً ضد الذين يحاربون هذا الدين، وفى القرآن معجزات كثيرة تحدثنا عن بعضها، وسنتحدث عن بعضها فى المستقبل إن شاء الله.

نعود مرة أخرى إلى معجزة الإسراء والمعراج، وقد توقفنا عند سؤال هام.

لقد كلم الله موسى عليه السلام وهو على الأرض، فلماذا أُسرِىَ بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء؟ ولماذا لا يكلم رسوله وهو على الأرض.

وقبل أن نبدأ فى الإجابة على هذا السؤال، نعود للآية الكريمة التى تبدأ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، والذى أسرى هنا هو الله سبحانه وتعالى، أما الذى أُسْرِى به وعرج به إلى السماء، وصعد به إلى السماء، فهو رسول الله صلى الله عليه

وسلم، إذن فالفاعل هو الله، ومادام الفعل من الله، فيجب أن تنسب القدرة إلى الفاعل، أى إلى الله سبحانه وتعالى، والله لا تحده حدود ولا قيود ولا تنطبق عليه مقاييس البشر، وليس عنده زمان ولا مكان، ومن هنا فعندما نتحدث عن المعجزة . . يجب أن تكون فى أذهاننا قدرة الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى.

ونعود مرة أخرى إلى السؤال، لماذا كلم الله موسى، ورفع محمدا إلى السماء، ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا أن يكلم رسوله وهو على الأرض؟ وهل الله سبحانه وتعالى يحده مكان، بحيث يرفع رسوله إليه، أم أنه لا يحده مكان ولا زمان؟

حينما نتحدث عن هذا كله، لا يجب أن نضع أمامنا مقاييس البشر، فالزمان والمكان هما خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، خلقهما للإنسان فى حياته الأرضية، ولكن الله لا يحده زمان ولا مكان ولا قدرة، ومن هنا فإننى لا يجب أن أفهم المعجزة بمقاييسى أنا وقدراتى أنا كبشر، ولكن يجب أن أفهمها بقدرات الله سبحانه وتعالى الذى لا يوجد عنده زمان ولا مكان، فإذا قلت المسافة، وإذا قلت رفعه، فمعنى رفعه هنا شىء مختلف تماما عن معنى الارتفاع فى الجو مثلاً، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين صعد برسوله إلى السماء، ليس معنى هذا الصعود الذى نفهمه، ولكن معناه الصعود الذى هو حسب قدرة الله والعمل يتناسب دائما مع القدرة . . ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد غيّر - بقدرات الله - من طبيعة الأشياء، بحيث وصل إلى منزلة هى أكبر من منزلة الملائكة المقرّبين له سبحانه وتعالى، وكما أن الأرض خَلق الله لها قانوناً، فالسماء قد خلق لها سبحانه وتعالى قوانين ؛ ومن هذه القوانين أنه لا أحد بصورته البشرية يستطيع أن يصل إلى السماوات، أو يخرج من عالم الأرض، وعالم الأرض هنا ليس معناه القمر، ولا النجوم المحيطة بالأرض، ولا الشمس، فهذه كلها مجموعة شمسية، هى مجموعة الأرض وكلها تتفاعل معا، وتتأثر معا، بقوانين قد وضعها الله لها ليكمل بعضها بعضا فى المهمة التى حددها الله لها، فالشمس مثلاً إذا غابت اختلت الحياة فى الأرض، والقمر إذا اختفى، ربما حدث خلل فى قوانين المجموعة الأرضية، إذن فهذه المجموعة الأرضية التى تضيؤها الشمس التى نراها كل صباح إنما هى مجموعة واحدة، خلقها الله سبحانه وتعالى وسخرها لخدمة الإنسان، فتعطيه الدفء. وتمكن له سبل الحياة، وتنبت له الزرع، إلى آخر ما يحدث، ولو غابت هذه الشمس لتحولت الأرض إلى كتلة من الجليد لا يعيش عليه البشر والريح، والسحاب، ونظام الكون، كل ذلك مسخر للإنسان.

إذن . . فى داخل هذه المجموعة الشمسية خدمة الإنسان، وفى خارجها مئات من المجموعات الشمسية والكواكب، مثل المجموعة الشمسية الموجودة فيها الأرض، كلها من خلق الله، وكلها لها قوانين تتبعها، ولها مهام يعلمها الله سبحانه وتعالى.

ولكن الله - وهنا يجب ألا ننسى أن القدرة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى - قد

خرق كل هذه القوانين لمحمد عليه الصلاة والسلام، وجعله بإذن الله وبأمره يخرج من هذه المجموعة إلى الكون الأعلى ليرى من آيات الله ما لم يره بشر، وليصل إلى سدرة المنتهى وليسمع صرير الأقلام، وليس معنى هذا أن كل ذلك محدود بمسافة ومكان، ولكن معنى الرؤية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه انتقل بقدرة الله من هذه المجموعة الأرضية إلى ماهو أرقى وأعلى منها، وهذا الانتقال يقتضى تغيير طبيعة البشر من حال إلى حال.

ولكى أقرب هذا إلى الأذهان، أحب أن أقول: إن الله سبحانه وتعالى مع كل آية سماوية يعطينا ما يقربها للأذهان، فى حياتنا الأرضية، فالإنسان مثلاً طبيعته وهو مستيقظ، حين يكون مستيقظا يعيش الحياة الأرضية العادية، فإذا نام فقد يرى أشياء لا تخضع لقوانين الكون، كأن يرى مثلاً أماكن لم يرها فى حياته، ولم يسمع بها، وقد يلتقى مع أناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة، ويكلمهم ويكلمونه، وقد تحدث له أشياء لا تتفق مع طبيعة العقل البشرى، كأن يقفز من فوق جبل عال، وينزل سالما على الأرض، أو ينتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها فى لحظات، أو يرى عالما لا يوجد فى حياتنا الأرضية أو يذهب إلى مكان بعيد مئات الألوف من الأميال. كل ذلك يحدث فى لحظات والإنسان نائم.. فإذا استيقظ ذهب عنه كل هذا.. ويبدأ حياته الأرضية العادية.

ما معنى هذا الكلام كله، معناه أن طبيعة الإنسان والقوانين التى تحكم الإنسان وهو نائم تختلف اختلافا كليًا عن تلك القوانين التى تحكمه وهو مستيقظ، فهو يرى وعيناه مغلقتان ويتكلم ولسانه لا يتحرك، ويسمع بينما لا أصوات حوله على الإطلاق، كل ذلك يحدث خلال النوم، لماذا؟ لأن طبيعة البشر هنا اختلفت، ومع اختلاف الطبيعة اختلفت القوانين فأصبحت تلك القوانين التى تحكم الإنسان ملغاة، وانتقل الإنسان إلى طبيعة أخرى تحكمها قوانين أخرى، ألغيت إلى وقت محدود، كل القوانين الأرضية التى اعتدنا الحياة بها، فإذا كان هذا يحدث للإنسان عندما ينام، وهو جسديا لا ينتقل من مكانه، فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى التى لا تحدها قيود ولا حدود، ألا تستطيع هذه القدرة أن تخضع الجسد البشرى وهو مستيقظ للقوانين نفسها التى يخضع لها وهو نائم؟ بل هى تمكن له من معجزات أكثر بكثير من ذلك، فإذا اقتربت الصورة من العقل البشرى إلى هذا الحد استطعنا أن نفهم أن المعجزات التى تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من خرق للقوانين البشرية، والصعود إلى الملكوت الأعلى بالجسد، هى معجزات أراد الله أن يقربها لنا بأن جعل البشر العادي يخرج من قوانين الأرض أثناء النوم، فكيف بقدرة الله حين يريد أن يخرج رسوله من قوانين الأرض.

إذن.. فالمعجزة تمت.. وتمت بقدرة الله، ورأى رسول الله من آيات ربه الكبرى فى السماء، أى إن موسى عليه السلام رأى آيات ربه الأرضية، أما محمد عليه الصلاة

والسلام، فقد رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى، وهنا الاختلاف، بين المعجزتين.

أما حديث الله سبحانه وتعالى، فقد تم فى مكان المعجزة، أو مكان الآيات، التى أراد الله أن يكشف عنها لرسوله، فكشف الله لموسى آياته الكبرى فى الأرض، وكلمه وهو على الأرض، وكشف الله لمحمد عليه السلام آياته الكبرى فى الملكوت الأعلى، وكلمه عند سدرة المنتهى، والله موجود فى كلا المكانين، وفى كل مكان وزمان، ومن هنا فإن الحديث لم يكن مرتبطا بتحديد مكان الله سبحانه وتعالى فهو موجود فى الأرض وموجود فى السماء، ولكنه كان مرتبطاً بكشف الله سبحانه وتعالى لآياته الكبرى، فعندما كشف الله آياته الكبرى لموسى فى الأرض، كان الحديث وموسى على الأرض، ومحمد عليه السلام رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى، فكان الحديث حيث المعجزة.. وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان، وليس كما يقول بعض المشككين بأن الله قد رفع إليه محمدا عليه السلام ليكلمه فى الملكوت الأعلى، وأن هذا تحديد لمكان يوجد فيه الله سبحانه وتعالى، فالله بالآيتين: كلام موسى على الأرض، وكلام محمد فى الملكوت الأعلى، إنما أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود فى كل مكان، وأنه يستطيع أن يخاطب من يشاء، وكيف يشاء سواء تم ذلك على الأرض، أو فى الملكوت الأعلى أو فى أى مكان فى ملك الله، فالآية هنا دليل على أن الله سبحانه وتعالى لا يحده مكان ولا زمان.

إذن.. فالإسراء والمعراج تم بالروح والجسد معا، ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى أنبياءه معجزات، وهذه المعجزات هى خرق لقوانين الأرض التى وضعها الله سبحانه وتعالى ومعجزة إبراهيم، ومعجزات موسى وعيسى كلها جاءت لتبطل مفعول قوانين أرضية وضعها الله سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض، فسلب الله النار خاصية الإحراق فى معجزة إبراهيم، وأبطل قوانين الماء ليعبر موسى البحر، وأعطى عيسى عليه السلام القوانين التى يشفى بها المرضى، ويحيى بها الموتى بإذن الله، وفى معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، خرق الله له قوانين الأرض وقوانين السماء، فجعله ينتقل من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس فى لحظات، وفى هذا خرق لقوانين الأرض، كمعجزة أرضية أن ينتقل الإنسان بجسده وبدون استخدام أى وسيلة أرضية متاحة من مكان إلى آخر فى وقت لا يستغرق أكثر من دقائق، ولكن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن خرق له قوانين السماء؛ فقانون السماء الذى وضعه الله سبحانه وتعالى هو ألا يصعد إنسان بجسده إلى السماء، ولكن هذا القانون أبطل الله مفعوله لرسوله، وجعله يصعد بالجسد حتى سدرة المنتهى، ثم أراه الآيات الكبرى فى السماء.

على أن لنا حديثا بعد ذلك حول الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ [النجم]، أى نزل من مكانه إلى مكان أقرب، وهنا تدخل المسافات، ولكن المعنى مختلف تماما، فنحن نقيس البعد والقرب بالمسافة، ولكن الحقيقة هى غير ذلك فنحن نأخذ الزمان والمكان أساسا لنا، والزمان والمكان مخلوقان لله سبحانه وتعالى، وما دام كل منهما مخلوقا لله، فلا زمان ولا مكان فى حكم الله، فلا يجب هنا أن نطبق قوانين البشر.

على أننا فى هذه الحالة، وكما قلت عدة مرات، فإن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقول البشر، يعطيهم فى الحياة ما يقرب إليهم فَهْم ماهو فوق طاقة العقل وقدرته، فإذا أردنا أن نحلل هذه العبارة بالمقاييس البشرية، عندما أقول: إن فلانا قريب من قلب فلان، أو قريب من فلان، هل أنا أستخدم فى هذه الحالة المسافة، أبداً، ذلك أنه قد يكون جالساً إلى جوارى تماماً، ولكن بين قلبيهما مسافة كبيرة خلقتها الأحداث من بُغْض وتنافر وتناحر ومن هنا فإن إنسانا يجلس إلى جوار إنسان قد يكون أبعد الناس عنه أو عن فهمه، أو قد يكون أبغضَ الناس أبعدَهم عن قلبه، بل إنه أحيانا يعيش اثنان فى بيت واحد، وتحت سقف واحد وكلاهما فى عالم مختلف تماماً عن الآخر، وكلاهما بعيد عن الآخر فى كل شىء، فى حبه وبغضه، وعاداته، وتقاليده، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ومن هنا فإن قرب الإنسان فى المسافة؟ لا يعنى قربه من الإنسان الذى يجلس إلى جواره وإنما القرب يمكن أن يكون مع إنسان بعيد من ناحية المسافة، فقد يكون أكثر الناس رؤية لك، وقربا من مكانك هو أبعدهم عنك، وقد يكون أقل الناس مقابلة لك، وأبعدهم عن مكانك هو أقرب الناس إلى قلبك، إذن فالقرب والبعد لا يمكن أن يُقاسا بالمسافة ولايمكن أن تنطبق عليهما مقاييس المكان، ولكن تنطبق عليهما مقاييس أخرى قد يكون أقلها شأناً هو المسافة، ومن هنا فإننا لا يجب أن نأخذ الآية الكريمة ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٩]، بأن معناها دنو فى المسافة، ولكن معناها قرب من القلب، وهذا يأتى بالكشف.

وإذا أردنا أن نوضح هذه العبارة، فإننا نقول مثلاً: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبح الحصى فى يده، وأنا شخصيا أحب أن أُعدِّل هذه العبارة، بحيث أقول لأجعلها أقرب إلى الدقة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى فى يده، فالحصى يسبح فى يد المؤمن، وفى يد الكافر، وكل شىء فى الكون يسبح لله، ولكننا لا نفقه ولا نسمع تسبيحهم، وهذه الأشياء لا تسبح بإرادة الإنسان، ولا دخل له فيها، ولكنها تُسبح بإرادة الله سبحانه وتعالى، فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمسك بالحصى، سمع تسبيحها لأن الله سبحانه وتعالى كشف له عن ذلك، ولكن أى إنسان يمسك بالحصى لا يسمع تسبيحها لأن الله سبحانه وتعالى لم يكشف له عن هذا التسبيح، ومن هنا فإن الكشف يكون دُنُوا من الله سبحانه وتعالى، وقربا منه، بحيث يُري

من شاء ما يشاء من أسرار كونه، والله سبحانه وتعالى يكشف ما يشاء لمن يريد، فيقول الله سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝ ﴾ [ص].

هل معنى ذلك أن الجبال توقفت عن التسبيح، إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومعنى ذلك أن كل ما فى الأرض يسبح لله، ولكن الذى أُعطى لغة تسبيح الجبال واستطاع أن يفهمها ويسمعها، هو داود عليه السلام.

والسؤال الذى يحاول بعض الناس أن يوجهوه، هو: بأى لغة يتم هذا؟ وأنا أتعجب كثيرا من هذا السؤال، فاللغة ليست محدودة بالألفاظ، الإشارات اللاسلكية التى تنتقل عبر العالم، هى لغة لا يستطيع أن يفهمها إلا من يقوم بالعمل فى هذا المجال، ويدرس هذه اللغات، فإذا جئنا بإنسان لم يدرس هذه اللغة، وجعلناه يستقبلها فلن يفهم شيئا، والشفرة السرية المستخدمة بين الدول، هى لغة أيضاً لا يستطيع أن يفهمها إلا من يعطى مفاتيحها والإشارات البحرية مثلاً لغة ثالثة يفهمها رجال البحار.

إذن.. فهناك بجانب الألفاظ المنطوقة لغات متعددة يفهمها أهل الأرض، ويصطلحون عليها، ولا يستطيع أن يفهم هذه اللغات إلا من أعطى مفاتيحها، فكذلك تسبيح الجبال.. وتسبيح كل شىء، لا يفهمه إنسان ولا يسمعه إلا من أعطى مفاتيحه، تماما كما أن هناك تخاطبا بعشرات اللغات يتم عبر العالم، سواء بالشفرة، أو باللاسلكى، أو بغيره، ونحن لا نحس بها، ولا ندرى، حتى بمجرد وجودها، ولا بما يتم فيها.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين كشف للنبى صلى الله عليه وسلم أسرار السماء وأراه الله آياته الكبرى، كان ذلك فضلا من الله لنبيه، ولا يمكن أن نضع نحن البشر بمقاييس الزمان والمكان، ماهية هذا الكشف، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الزمان والمكان، ولا أستطيع أن أقيس المسافة، وأقول كم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السماء؛ لأن الله ليس عنده مسافة، ولا أستطيع أن أقول، كم من الزمن استغرق ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن، ولكننى أستطيع أن أقول: إن ذلك حدث؛ لأن الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض وكل شىء، يستطيع أن يعطل القوانين لتتم معجزة من المعجزات لأنبيائه، والمعجزة كما قلت سابقاً لا تتكرر أبدا.

وكما نقول فى صعود محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء، نقول فى القرب منه فالقرب ليس بالمسافة كما أوضحت، ولكن معناه التصاق بالقلب والروح؛ لأن الوحى حين كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه كلام الله، كان قريبا إلى قلبه وإلى روحه قربا لم يحدث لبشر قبله، ومن هنا كان النبى صلى الله عليه وسلم، أثناء

الوحى يغيب عن الوعي، وبعد الوحى يبدو مرهقاً من امتزاج الوحى بالطبيعة البشرية، وهو امتزاج لا يحدث إلا بأمر الله، ومن هنا أيضاً عندما نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف نزول الوحى، إن جبريل جاءه وقال اقرأ، قال ما أنا بقارئ. قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى ثالثة ثم أرسلنى وقال اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق] (١).

والغطة أو «الضمة» هنا هى تعبير من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القرب والامتزاج الذى يتم من خلال الوحى بالقرآن.

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السماوات السبع ما رآه، وجاء وقص ذلك على الناس، فمنهم من صدق، مثل أبى بكر تصديقاً إيمانيًا، لأن أبا بكر عندما روى له ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسراء والمعراج، سأل سؤالاً واحدا هو: هل قال محمد هذا؟ قالوا: نعم، قال: إذن فهو صادق، وكان التصديق هنا أن رسول الله لا يكذب أبدا، ولا ينطق عن الهوى، ولذلك لقب أبو بكر بالصديق، ولكن بعض الناس أنكروا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنباء القوافل التى بين بيت المقدس ومكة فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، فوصفه وصفا دقيقا، وكانت هذه الآيات الأرضية مقصودا بها أنه ما دام رسول الله قد صدق فى ذلك، فهو صادق فيما رواه عن المعراج وعن صعوده إلى السماوات، وعن اختراقه الحجب.

تلك هى معجزة الإسراء والمعراج، وهى معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الأرض وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى، ويثبته، ويفرض عليه أقدس العبادات، وأقربها إلى الله سبحانه وتعالى وهى الصلاة، والمقصود بالمعجزة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى لم تحدث أمام جمهرة من الناس، أو على مشهد من الملأ، بل حدثت بين الله ورسوله وكشف له فيها أسرار السماوات، وأسرار الكون.

(١) روى البخاري [٣] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك - ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ [العلق].

ماذا تعلمنا هذه المعجزة، تعلمنا أولا قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يفعل ما يشاء لعباده الذين يختارهم، وتعلمنا أن خاتم الأنبياء قد فتح الله له، ليس فقط ملك الله فى الأرض ولكن ملك الله فى السماوات، تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان، يكلم نبيا له وهو على الأرض، ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى، ولو كان الله سبحانه وتعالى موجودا فى السماوات وحدها، ما كلم نبيا له على الأرض، ولو كان موجودا فى الأرض وحدها، ما كلم نبيا عند سدرة المنتهى.

وأخيراً.. إن معجزات الرسل قد تمت على مشهد من المؤمنين، لتثبيتهم، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكونه خاتم المرسلين، فقد اختص وحده بالصعود إلى السماء، أما المعجزة الخالدة الباقية فهى القرآن الذى يعطى عطاء لكل جيل، يختلف عن عطاء الجيل الذى سبقه.

وحدة الكون.. وقدرة الله

الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بوحدة الكون وقدرة الخالق، وحدة الكون فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقدرة الخالق فى الإعجاز الذى نراه فى كل خلق من مخلوقات الله، سر الحياة المغلق، مهما تقدم الإنسان فى العلم، وتطور عقله وأعطاه الله وكشف له عن أسرار الحياة المادية فى الكون.

وبعض الناس يأتى إلى الآية الكريمة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ليجادل فيها، فهناك أشياء فى نظر بعض الناس قد قام البشر بالإسهام فيها، مثل الزرع مثلاً، والاختراعات الجديدة التى دخلت فى خدمة الإنسان كقدرته على الطيران مثلاً، أو الاستخدامات الحديثة للتليفزيون والإذاعة إلى آخر ذلك، بعض الناس يقول: إن هذا من عمل البشر فهذا من اختراع أو صنع العالم الفلانى، وذلك من إنتاج أبحاث أجريت إلى آخر ما يقال.

ولكن نبحث هذا الموضوع من أساسه نقول إن الأرض مرتبة هكذا، جماد، فنبات فحيوان، ثم الإنسان، يأتى نُمُوٌ فيكون نباتا، ويأتى حِسٌ فيكون حيوانا، فيأتى فكر فيختار بين البديلين فيكون إنسانا، هذه هى كل الأجناس المرئية فى الأرض أو التى يراها الإنسان أو يُحس بها، ولسنا بصدد الحديث عن الأجناس غير المرئية فذلك يخرج عن موضوعنا كل الأجناس المرئية من جماد ونبات وحيوان والإنسان فى غير ما يفكر فيه بإرادته الحرة بين البديلين.

كل هذه الأجناس بما فيها بما يدخل فى الإنسان نفسه، ويعمل بحركة لا إرادية لا دخل لإرادة البشر فيها، كالتنفس مثلاً، ونبضات القلب، والدورة الدموية، وعمل الجهاز الهضمى إلى آخر هذه الأشياء، لا تدخل إرادة الإنسان فى عملها، فأنت لا تستطيع أن تقول لقلبك انبض فينبض، أو توقف عن العمل فيتوقف، وأنت بإرادتك لا تستطيع إذا توقف القلب عن العمل أن تعيده مرة أخرى، أو إذا توقفت الرئتان عن التنفس بأن تجعلهما تتنفسان، أو إذا توقفت المعدة عن هضم الطعام، أن تصدر إليها تعليماتك فتعود مرة أخرى إلى عملها، كل ذلك خارج عن الإرادة البشرية، أو عملية الاختيار التى اختص

بها الله سبحانه وتعالى الإنسان، فى افعل ولا تفعل، وأعطاه فيها حرية الاختيار بين البدائل المختلفة.

الجماد والنبات والحيوان، والأجزاء التى تدخل ضمن جسد الإنسان ولا تخضع للإرادة ومنها خاصية النمو مثلاً، هى غير خاضعة للإرادة البشرية، كل هذه الأشياء منضبطة انضباطا قسريا قهريا لا دخل لأحد فيها، فالجماد مضبوط ضبطا مقصورا على مهمته والنبات مضبوط بحيث يؤدى مهمته، فأنت تضع البذرة فى الأرض فتتفاعل وتنبت لها جذور وساق، من دون أن يكون لك أنت أى دخل فيها. بل إنك تستطيع أن تشاهد هذه العملية من خلال أنبوبة اختبار تأتى بها، وتضع فيها البذرة فترى كيف تنمو بذاتيتها بما أودعه الله فيها من انسجام مع مهمتها فى الكون، فتجد أن البذرة رغم أنها توضع فى أرض واحدة وتُسقى من ماء واحد، إلا أن كل نبات منها يمتص من الأرض ما يجعله صالحا لمهمته، فتختلف الألوان، ويختلف المذاق، رغم أن الأرض واحدة، والماء واحد.

هذا هو انسجام النبات مع مهمته فى الحياة، وقد وضع الله سبحانه وتعالى فى هذا النبات خاصية الاختيار، من مواد الأرض بما يلائمه ليتم انسجامه مع الكون ومع مهمته، والحيوان أيضاً منسجم مع مهمته فى الكون، سواء ذلك الذى أخضعه الله سبحانه وتعالى وسخره لخدمة البشر، أو ذلك الذى يسخر ولم يخضع لإرادة البشر كالحيوانات المفترسة مثلاً، كل هؤلاء في انسجام مع مهمتهم فى الكون.

يأتى بعد ذلك الإنسان، الأجزاء غير الخاضعة لاختيار الإنسان منسجمة مع مهمتها فى الكون، فالتنفس مثلاً يتم بطريقة تلقائية وبلا صعوبة، وكل إنسان يجد حاجته من الهواء دون تعب أو مجهود، والقلب ينبض بدون أن تحس به، بل إن القلب والتنفس والجهاز الهضمى وكل الأجزاء غير الخاضعة لإرادتك، تعمل وأنت مستيقظ، وتعمل بدون أن تحس بها فى انسجام كامل، إلى أن تأتى أنت وتفسد مهمتها كأن ترهق المعدة بالطعام، أو القلب بالمجهود أو تدخن مثلاً بشراهة بما يفسد رئتيك، فهذا الفساد الذى جاء فأنت الذى أدخلته بإرادتك، وسوء استغلالك لنعم الله التى أنعم بها عليك، وهكذا الفساد فى الأرض جميعا، يأتى من تدخل هوى النفس ليحاول الإنسان أن يغير ما فى الكون حتى يخضع لهواه، هنا تبدأ عملية الإفساد، فكل فساد فى الأرض مرجعه إلى هوى النفس البشرية وإذا أردنا أن نصلح عدنا إلى القوانين والقواعد التى وضعها من لا هوى له، وهو الله سبحانه وتعالى، إذا فعلنا ذلك يصلح كل شىء.

ولكن الإنسان يريد أن يمضى كل شىء على هواه، وأن يضع موازين الحق لا على أساس الحق نفسه، ولكن على أساس ما يشتهى ويريد، ومن هنا نشأت التعاسة وجاء الشقاء إلى الأرض، فلو أخذ كل إنسان حاجته فقط ما وُجد جائع ولا فقير. ولكن بعض الناس يأخذ أكثر من حاجته لا ليومه فقط، ولكن لحياته كلها، محاولا بذلك أن يصل إلى ما يسميه

الأمان، بينما لو عرف الحقيقة لعلم أن الأمان بيد اللّه لأن الغد بيد اللّه، وما تحرص عليه أنت اليوم، قد يُذهبه اللّه إذا شاء غداً، وما ليس معك اليوم، قد ينعم اللّه به عليك بعد ساعات، إذن فالضمان البشرى فى حقيقته يجب أن يكون متصلا باللّه سبحانه وتعالى وليس بماديات الحياة، ذلك أن قدرة اللّه هي التى تعطى وتمنع، وتنعم وتذهب النعم.

نعود بعد ذلك إلي الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

وخلق الأرض والسماوات وكل ما فيها هو للّه سبحانه وتعالى، وهذه قضية لا جدال فيها فلم يأت أحد وادّعى أنه خلق الأرض، أو خلق السموات، أو خلق الشمس والقمر والنجوم، أو خلق ما على الأرض من حياة، ولو أن هذا الخلق لغير اللّه سبحانه وتعالى لوجدنا من يجيء ويقول أنا خلقت، ولكن أحداً لم يدع ذلك حتى ولو مجرد ادعاء ومن هنا فإن قضية الخلق ثابتة للّه سبحانه وتعالى فى الأرض منذ بداية الخلق، وما وضعه من قوانين لاستمرار هذا الخلق، فأنت حين تجيء وتدعى أنك الذى زرعت هذه النخلة نقول لك من أين جئت بالبذرة أو النواة التى زرعتها؟، فتقول من نخلةكانت مزروعة ومن أين أتت بذرة أو نواة هذه النخلة التى كانت مزروعة؟ فتقول من النخلة التى سبقتها وهكذا حتى تصل إلى الخلق الأول، فكأن هذه البذرة التى وضعتها فى الأرض هى ثمرة البذرة الأولى التى خلقها اللّه سبحانه وتعالى، فقدرة اللّه هى التى أوجدت هذا، رغم أنك تكون قد حرثت الأرض لتضع البذرة، مهمتك كلها في الزرع هى الحرث فقط، أما البذرة نفسها فهى من الخلق الأول الذى تكرر حتى وصل إليك.

قد يقول بعض الناس: إن هناك أصنافا جديدة، تأتى من تطعيم بذرة ببذرة، أو من أبحاث معينة على البذرة نفسها، تطعيم بذرة ببذرة هو من خلق اللّه للبذرة الأولى والثانية وكل ما فعلته أنت، هو أن اللّه هداك إلى هذه الطريقة، ولكنك لم تخلق شيئا جديداً وتحسين البذرة بما تستخدمه من مواد فأنت أيضاً تستخدم ما خلقه اللّه بدون أن تخلق شيئا جديداً.

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها اكتشافات لقوانين الكون، فالذى اخترع الطائرة لم يخلق الغلاف الجوى الذى تطير فيه، ولا خلق المادة التى تصنع منها الطائرة، وإنما خلق بقوة اللّه سبحانه وتعالى الذى أعطاك المادة وأعطاك القوانين التى تعمل بها، ثم أعطاك القوة التى تجعلك تكتشف كل هذه الأشياء، وما يقال عن الطائرة يقال عن باقى الاختراعات، فلم يخلق إنسان مادة، ولا خلق قوانين فى الكون، وإنما هو كشف لخلق اللّه سبحانه وتعالى فى كونه بما يريد سبحانه وتعالى أن يكشفه لخلقه من أسرار الإبداع فى الكون، إذن فقول اللّه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. ينطبق على ما كان موجوداً قبل نزول القرآن، ووقت نزول القرآن، وبعد نزول القرآن إلى أن تقوم الساعة،

وكل ادعاء بأن هناك إنسانا خلق شيئا هو ادعاء غير صحيح، وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أنه خلق مظاهر الكون الثابتة الرتيبة التى يحسب الإنسان أنها لا تتغير كالشمس والقمر والأرض والنجوم، كل هذه الآيات إنما هى لحياة الإنسان على الأرض، فمتى ذهبت هذه الحياة، وجاءت الساعة تغيرت الأرض والسماء والنجوم وكل ما حولها، وانقلبت الحياة كلها من حياة تستخدم فيها الأسباب، إلى حياة ينعم الله فيها على عباده من دون أسباب، فتنفعل الأشياء لك بمجرد أن تأتى إلى خاطرك، فإذا تمنيت الشيء وجدته أمامك بقدرات الله وليس بقدراتك أنت.

ووحدة الكون، تنبع من قدرة الخالق سبحانه وتعالى، والله يريد أن يذكرنا دائما بقدرته ولذلك وضع فى الكون آيات تذكرنا بهذه القدرة، وأبقى فيه مع الأسباب طلاقة القدرة حتى لا نعبد الأسباب، وأرسل لنا الرسل لنتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا وأننا ملاقوه، وأن بدء الحياة من الله والحياة تعود لله سبحانه وتعالى، وأن الله ينصر الذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة.

وقبل أن نتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى وكيف يذكرنا بها نريد أن نقف وقفة صغيرة هى موضوع جدل كبير بين المستشرقين، ذلك هو تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالملائكة فى غزوة بدر، بعض المستشرقين يثير هذا الموضوع على أساس أن النتيجة لا تتناسب مع حجم الحدث نفسه، والمعروف أن الملك الواحد له قدرة وقوة من الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يدمر بها مدينة بأكملها، فكيف يمد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذا العدد من الملائكة فى معركة محدودة كمعركة بدر، عدد القتلى من الكفار فيها يزيد قليلا عن سبعين، وهل يتناسب هذا العدد مع من قتله المسلمون ومن الملائكة، نقول لهم، إنكم لم تفهموا الحكمة من تأييد الملائكة للمسلمين فى هذه الغزوة.. فالذى لاشك فيه أن الملائكة ثبتوا المسلمين على القتال لأن قريشاً كانت لها هيبة كبيرة بين القبائل، وكان هذا التثبيت عاملاً حاسماً فى النصر، ولكن الحدث نفسه من الله سبحانه وتعالى العليم بالغيب وبما هو قادم، يتناسب مع النتيجة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه من أصلاب بعض هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين فى بدر سيخرج من يدافع عن دين الله، ويقاتل فى سبيله، ويكون نصيراً ونصرا للإسلام، ولكن المقصود بالقضاء عليهم فى غزوة بدر هم أئمة الكفر الذين ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون، والذين نستطيع أن نشبههم الآن بمجرمى الحرب، أى الذين لا يكتفون بقتال المسلمين بل يحرضون غيرهم ويدفعونهم إلى محاربة دين الله، هؤلاء علم الله سلفا أنهم أعداء دينه، وأنهم سيحاربون الله ورسوله ما بقى فيهم نفس يتردد؛ ولذلك كان القضاء على هؤلاء دون غيرهم من الذين جاءوا لمقاتلة المسلمين فى غزوة بدر إما مدفوعين أو بحمية الجاهلية، فإذا قلنا إن الملائكة قد ثبتوا المؤمنين بأنهم معهم يكون ذلك صحيحا، وإذا

قلنا إن الملائكة شاركوا فعلاً فى المعركة يكون بأنهم قد قتلوا أئمة الكفر الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين، وإذا كان الحدث هنا لا يتناسب مع القدرة، فإنه يتناسب مع الحكمة والهدف، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك الكفار جميعا، بل لو أراد أن يهلك من فى الأرض جميعاً لأهلكهم فى لحظة بكلمة ﴿ كُن ﴾، ولكن الهدف هنا لم يكن الكفار على إطلاقهم لأن الله يعلم أنهم سيهتدون وسيكونون من الداعين لدينه، المجاهدين فى سبيله.

تبقى بعد ذلك عدة أسئلة، إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم يهلك الله سبحانه وتعالى أئمة الكفر بلا قتال، وهو قادر على ذلك؟ والجواب سهل ويسير، فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينصر دينه على أيدى المؤمنين من عباده ولا يريد أن ينصر دينه بطلاقة قدرته، وإلا لكانت طلاقة القدرة هى الأساس، ولما احتاج الله سبحانه وتعالى لأن يرسل رسولاً أو نبيًا، فالله يريد منا أن نأتيه طوعاً واختياراً، أى نأتيه بإرادتنا الحرة طائعين ونحن فى الوقت نفسه نملك الخيار فى أن نفعل ذلك أو لا نفعله، فإذا فعلنا وجئنا طائعين مؤمنين فإن الله قد كتب على نفسه أن ينصر الذين آمنوا ويؤيدهم ويدافع عنهم ويثبتهم، وهو يريد هنا أن يثبت الذين آمنوا ويُعطيهم ثقة فى النفس وقدرة تعدهم للمهام القادمة من فتح مكة والجزيرة العربية وباقى أنحاء العالم، ولذلك فهو يثبتهم بالملائكة، ويخبرهم بذلك حتى إذا جاء قتال جديد دخل المؤمنون المعركة وكلهم ثقة فى أن الله سبحانه وتعالى معهم، وأنه سينصرهم مهما كان عدوهم، فزالت الخشية من قلوبهم، وملأتهم شجاعة الإيمان.. وصلابته، وبذلك يكونون قد أعدوا الإعداد الصحيح والسليم لكل ما يكلفهم به الله سبحانه وتعالى من جهاد قادم.

ويأتى القرآن وهو كلام الله الذى لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة، يأتى ليذكر هذه الواقعة حتى يعرف الذين لم يشهدوا معركة بدر، أن الله مع المؤمنين دائما وأنه يمدهم بالملائكة ليثبتوهم وينصروهم، وهكذا يحس المؤمنون حتى قيام الساعة بتأييد الله ونصرته لهم، وتبقى هذه الروح الإيمانية، وتحول أولئك المجاهدون إلى رجال أشداء لا تدخل قلوبهم الرهبة من أعداء دين الله ولا يخافون الهزيمة مهما كانت قوة عدوهم.

الملائكة وغزوة بدر.. وقدرة الله تعالى

بما أن الله سبحانه وتعالى يشرع للبشر فى الأرض، فهو يأتى بالنظرية والتطبيق معا وكانت النظرية هى ما أورده الله سبحانه وتعالى فى كتابه، وتطبيقها هو ما حدث فى بدر فالتثبيت بالملائكة له هدف إيمانى باق حتى قيام الساعة، أما الخسائر فى المعركة فهى بالنسبة للكفار أنهم أئمة الكفر الذين يحرضون الناس والقبائل على قتال المؤمنين، وهكذا نجد أن الآية منسجمة تماما مع الهدف الإيمانى وهو تأييد الله للمؤمنين، والهدف الواقعى وهو التطبيق العملى لهذا التأييد بواقع حدث فعلاً، والهدف الغيبى وهو أن من بين هؤلاء الذين دفعوا لمحاربة المسلمين فى بدر، من سيدخل الإسلام، ومن سيحارب فى سبيل الله، ومن سينصر دين الله.

هذه لمحة سريعة للرد على بعض الذين يحاولون النيل من دين الله بالتشكيك فى القرآن نأتى بعد ذلك إلى تذكير الله سبحانه وتعالى لنا بقدرته دائما، وهذا التذكير هو رحمة بخلق الله، ذلك أنه يبعدهم عن العذاب، ويعطيهم الحياة الكريمة فى الأرض، وفى هذا سأذكر بعض خواطرى عن سورة «الطارق» التى تتناول - كباقى سور القرآن - التذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى، وبأنه لا شىء فى هذا الكون يخرج عن هذه القدرة، يقول الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ [الطارق: ١].

والسماء معناها: كل ما علاك وأظلك، وكل ما يعلو الإنسان يطلق عليه اسم السماء وقد تحدث العلماء فى أول الأمر عن السماء على أساس أنها العلو المباشر فوقهم، وكلما اهتدى كشفهم إلى ارتفاع جديد فى هذا العلو أطلقوا عليه اسم السماء، حتى تم اكتشاف سبعة كواكب تدور حول الشمس، فقالوا: إنها السماوات السبع، ثم كُشفت كواكب أخرى فبطل هذا التفسير لأنها وصلت اليوم إلى عشرة.

والحقيقة أنه ما من تفسير أخذ يضيق المسافة كالتفسير العلمى للسماء، والله سبحانه وتعالى قال عن بناء السماء: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

أى إنه أعطى صفة السعة لبناء السماء، ولقد سبق أن تحدثنا عن قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة البشر، وقلنا: إن الفارق بين القدرتين هائل، بحيث لا توجد مقارنة، وأن كل شىء تعتقد أنه وَصْف حقيقى لصفة من صفات الله فهو ليس كذلك؛ لأن الله ليس كمثله شىء فإذا وصلت إلى شىء، وأردت أن تضع لله صفة مثله نقول إنك قد أخطأت؛ لأن الله سبحانه ليس كمثله شىء، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾، فمعنى ذلك أن البعد لا نهائى. لا يمكن أن يصل إليه عقلك المحدود، فكل

قول بأن الكواكب والنجوم التي نراها هي السماوات قول غير صحيح ؛ ذلك أن الله حين تكلم عن الكواكب قال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات: ٦].

فهذه الأجرام التي نرصدها هي في السماء الدنيا، وبقيت بعد ذلك السماوات سقفاً محفوظاً كما أرادها الله سبحانه وتعالى، وسعة لا نهائية لا تدخل تحت إدراك العقل البشرى فحين يقسم الله بها يجب أن نعلم أنها شيء هائل فوق كل العقول، وأن بناءها وحفظها من معجزات الله سبحانه وتعالى.

السماء.. والطارق

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾، ما معنى كلمة: ﴿ وَالطَّارِقِ ﴾؟ ولماذا يقسم بهذه الكلمة؟ إن الرد على ذلك يأتى فى الآية التى تأتى بعدها، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾.. كأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف المعنى الذى يريده الله سبحانه وتعالى من كلمة ﴿ وَالطَّارِقِ ﴾، وأنه سيعطينا هذا المعنى، ولنقف عند هذه النقطة قليلاً، طارق اسم فاعل من طرق، وطرق معناها ضرب بشدة ليحدث صوتا ننتبه إليه، والطارق هو السائر بالليل ذلك أن الليل سكون، وصوت الأقدام يسمع فيه ولا يسمع بالنهار وسط الحركة والضجيج وهناك ما يطرق الفكر ليتملك الإنسان، كل هذه المعانى تلتقى فى شىء واحد هو أن هناك شيئا حسيا، أو ماديا أو نفسيا، ينبهك بما يشبه الطرق، فيجعلك تنتبه إلى ما لم تكن تفكر فيه أو مستعدا له، وذلك يأتى من خارج نفسك وليس من داخلها ولكنه يؤثر فى هذه النفس.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ ﴾

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ هو الذى يُرسل شعاعه بالليل لتهتدى به، أى إنه يثقب الظلام ليرى الطريق، وما دام الله قد أحل لنا السعى بالليل والنهار، فقد جعل طرق الهداية فى كل منهما فجعل الشمس والنور للنهار، والنجوم والقمر لليل. كل وقت له هداية، فإذا استيقظت فى الصباح وجدت الدنيا يملؤها النور، وإذا سعيت فى الليل كان القمر والنجوم هاديان لك، فالله لا يتركك وحدك بلا هداية.

وتمضى السورة الكريمة: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤].

ما هى العلاقة بين السماء والطارق، والنجم الثاقب، والحفظة على النفس، لو نظرنا نظرة سطحية لقلنا لا علاقة بين هذا كله، ولكنه فى الحقيقة مرتبط بعضه ببعض ليذكرك بقدرة الله سبحانه وتعالى، فالله يريد أن يلفتنا إلى قدرته، فَقَسَمهُ بالسماء هو قسم القادر الذى بنى السماء بهذه العظمة من الاتساع وحفظها، فقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق السماء يعرفها كل من يدرس علم الفلك، وهو ينظر إلى هذا البعد اللانهائى من ملايين السنوات الضوئية دونما أن يصل إلى السماء الأولى.

ولكن السماوات السبع غيب عنا محفوظ من الله سبحانه وتعالى، وإن كنا نستطيع أن ندرك عظمة القدرة الإلهية فيه، فإنها ليست شيئا محسوساً فى حياتنا، ولكن قدرة الله فى الأرض وبيْنَ حولنا يجب أن تطرق عقولنا فى كل ثانية؛ لأننا أينما ننظر إلى شجرة،

إلى زهرة، إلى جبل، إلى البحار، إلى مخلوقات الله فى كل مكان، هناك فى كل شىء آية تطرق عقولنا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى، هذه الآيات التى تنبه العقل إلى عظمة الله وقدرته هى أمامنا فى حياتنا كلها، وهى كالطريق الذى ينبهنا دائما إلى القدرة الإلهية.

والله سبحانه وتعالى حين يذكر بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾، أى الذى يثقب الليل بنوره، فإنه يريد أن ينبهنا إلى أن القدرة معنا، سواء كنا مع الناس أو كنا فى مكان بعيد سحيق تستره الظلمة من كل مكان، فالليل ستر للإنسان يعتقد فيه أن أحداً لا يراه لأن الظلام يخفى، والسكون يضلل، والناس فى الليل ينامون فلا يوجد أحد إلا أقل القليل ولذلك فإننا يجب أن نعلم أنه رغم هذا كله فإن هناك نوراً يأتى ليثقب أى ظلام ويعرف كل سر، حتى إذا غاب الناس عن الوجود وكنت أنت وحدك المستيقظ، تلك هى قدرة الله وعلمه؛ أى إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بهذا القسم أنه لا شىء يسترنا عنه نهاراً أو ليلاً فى أى مكان كنا فيه، فإذا اعتقدنا أن النهار ونوره فيه رقابة من البشر، وأن حركة الحياة قد تمنعنا من شر نريد أن نرتكبه، فلتعلم أن الظلام لا يحمينا من الله، ولنعلم أن هناك من يثقب الظلام، ويعرف الخبايا التى تدور فى الليل، فالله سبحانه وتعالى قدرته بلا حدود، قد تقربها إلى أذهاننا عظمة السماء وسعتها وسر بنيانها، والله يرانا، سواء أضاء لنا الكون أو أظلم، كنا بمفردنا أو كنا مع الناس، هذه القدرة لابد أن تطرق أذهاننا باستمرار وتذكرنا كلما أردنا أن نقوم بمعصية أن الله يسمع ويرى، وأننا لا نغيب عن قدرته أبداً.

ثم يذكرنا سبحانه وتعالى بأن ما نفعله لا يعلمه الله فقط، ولكنه يسجله علينا، فكل نفس عليها حافظ، وكل شىء محفوظ عنده، وكل صغيرة وكبيرة تحسب على الإنسان بحيث يذهل الناس يوم القيامة من دقة الحساب، ويقول الكفار: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

القدرة موجودة بالليل والنهار، قادرة على أن تثقب كل ستر، وهناك من يكتب ما لك وما عليك، ما لك عند الله، وما عليك مما سيحاسبك عليه الله، فالإنسان فى كل كلمة يقولها، وفى كل عمل يأتيه، هو يتعامل مع الله سبحانه وتعالى، فإن ظلم أحداً من عباده فالله يقتص للمظلوم، وإذا أحسن لأحد من عباده فالله يجزى المحسن، وإذا أخذ أحد مالاً حراماً فالله يحاسبه، فى كل عمل أنت تتعامل مع الله سبحانه وتعالى، ولا تحسب أنك تستطيع أن تخدعه.. لأنك فى هذه الحالة تخدع نفسك، فإذا أنت تظاهرت بشىء وأخفيت قصدك الحقيقى.. فتذكر أن قدرة الله سبحانه وتعالى تصل إلى ما فى داخلك وتحاسبك عليه، وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون قوته مع الضعيف ضد القوى ومع المظلوم ضد الظالم حتى يكون هناك تكافؤ فى الفرصة، وتعادل فى القوة، يضع الميزان للحياة فى الأرض، فلو أن الله كان مع القوى ضد الضعيف، ومع الظالم

ضد المظلوم لفسدت الحياة، ولاستشرى الظلم فى الأرض، ولأصبح الناس أسيادا وعبيدا، ولزاد القوى قوة وزاد الظالم ظلما، ولكن قدرة الله تأتى للقوى لتقول له إذا غرتك قوتك، فتذكر أننى مع الضعيف ولا تغتر بنفسك ولا تمض بقوتك تفسد فى الأرض، فإن القوى الحقيقى الذى لا يغلب هو الله سبحانه وتعالى وهو مع الضعيف ضدك فاحذره، وتذكر جيدا واجعل هذا يطرق فكرك كلما أقدمت على عمل يغضب الله، فإذا طرقت قدرة الله عقلك فستردد وربما توقفت إذا دخل الإيمان إلى قلبك لأنك ترى - مع ذلك المغلوب على أمره - قدرة الله التى هى أقدر منك بملايين المرات.

وفى الحياة أمثلة كثيرة لقدرة الله سبحانه وتعالى، إنسان تراه في قمة السلطان والجاه والقوة.. وفى لحظة واحدة، يتغير الموقف كله، ويجد هذا الجبار نفسه فى السجن لا حول له ولا قوة، قد يستجدى حارسه كوب ماء، وقد كان قبل ذلك بساعات يحيط به مئات الحراس يتمنون إشارة من يده، تلك عبرة من عبر الحياة وضعها الله سبحانه وتعالى كما وضع إذلال الجبارين فى الأرض، ليذكرنا أن الله مع الضعيف وأنه لا قدرة إلا قدرة الله.

والله سبحانه وتعالى لا يحب أحداً إلا لعمله، ولا يكره أحداً إلا لظلمه، وبذلك يكون عدل الله سبحانه وتعالى تامًا بين البشر، وقدرة الله عندما تطرق العقل دائماً، تذكرنا بهذه الحقيقة، تقينا كل شر ننويه، ولنعلم أن الله هو الذى يعطى، وأن كل قدرات البشر تتضاءل بل تكاد تنمحى أمام قدرة الله، والله الذى يعطى الرزق لبلايين البشر على الأرض قادر على أن يعطى المؤمن ما يريد وما يشتهى، والله الذى ينجى ملايين الناس كل يوم من كروب وأزمات، ويأخذ بيدهم بعيداً عن كل سوء، قادر على أن يفرج كرب المؤمن وينجيه من كل سوء، والمهم أن يعرف الإنسان أن كل شيء مكتوب ومحفوظ فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله فى الآخرة، وهذه وقاية للنفس البشرية من أن تظلم وتطغى.

على أنه بجانب أن الكرام الحافظين يسجلون على الإنسان أعماله فإنهم يحفظون المؤمنين من شرور لا تستطيع القوة البشرية أن تردها، فهناك أشياء فى بعض الأحيان تحدث، فإذا سألت أى شخص من الذين وقعت لهم هذه الأشياء وكيف نجوت يقول لك لا أعلم، لولا فضل الله ما استطعت أن أنجو، ذلك أن قوة البشر المادية وقدرته المحدودة عاجزة عن دفع هذا الضرر، ولذلك فهو لا يستطيع أن ينسب الفضل إلى نفسه، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، فهو يحفظهم من أشياء وشرور قد تدبر لهم أحيانا من دون أن يعلموا بها، والحفظ هنا يكون بقدرة الله وقوته.

ثم تستطرد الآية الكريمة: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ ﴾ [الطارق].

وهنا يجب أن ندقق فى المعنى، الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى شيء هام

حتى لا يأخذنا غرورنا فنحسب أننا نستطيع أن نغيب عن قدرة الله أو أن نخدعه، فيقول للإنسان: قبل أن تغرك قوتك، وتبارزنى بالمعاصى، وتكفر بنعمتى، تدبر قليلا لتعرف مقدار نفسك أنت تحسب نفسك سيدا فى الكون، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعلك سيداً وأخضع لك كل قوى الكون إخضاعا جبريا، لا دخل لإرادتك فيه، وكان أولى أن تسجد لله شكرا على نعمه، ولكن الغرور يأخذك، وعبادة النفس، وعبادة الفرد، وظاهر الحياة الدنيا يجعلك تغتر بقدراتك، فإذا حدث لك هذا، فاجلس دقائق وتدبر مم خلقت، من ماء دافق، من خلية فى غاية الدقة لا ترى بالعين المجردة، هذه الخلية الدقيقة، هى أصلك من بعد آدم وحواء، تتشكل هذه الخلية التى هى غاية فى الدقة، ثم تبدأ فى العمل بقدرة الله، فيسير كل شىء فى مساره، فنجد أن هذه الخلية غير القادرة على أن تفعل شيئا - إذا تُركت وشأنها - عندما يأذن الله لها أن تتشكل، بعضها يخلق عظاماً، وبعضها يخلق عضلات، وبعضها يخلق أعصاباً، وبعضها يخلق عقلاً، وبعضها يخلق رئة، وبعضها يخلق قلباً، وبعضها يخلق عينين ولسانا وشفتين، ويدين وقدمين، وبعضها يبقى فى الجسم ليخلق نموًا بعد أن تأتى أنت إلى الدنيا، وهكذا نجد أن هذه الخلية غاية فى الدقة - تخلق ملايين الأشياء التى يتكون منها جسم الإنسان ودمه وكل ما يحتاج إليه هذا الجسم من حياة، بل إنه من الشىء الواحد نجد أشياء فى الخلق، فمن العظام، نجد عظاما جوفاء وعظاما مسطحة وعظاما دقيقة، ثم تتصل هذه الأجهزة بعضها ببعض لتبدأ العمل كوحدات متكاملة فينشأ جهاز عصبى متكامل، وجهاز هضمى متكامل، كل ذلك يدل على قدرة فائقة وهندسة إلهية.. هى وحدها القادرة على إتمام هذه المعجزة.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا، لا تغتر بما أنت فيه من إبداع خلق، ولكن إذا أردت فأرجع هذا إلى أصله، لتعرف عظمة القدرة الإلهية، فقدرات الخلق لا تكمن فى هذه الخلية، ولكنها تكمن فى قدرة الله، والله سبحانه يقول: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾، حتى لا يغره ما هو عليه الآن.

على أن هناك بعض الناس يتساءلون: إن آدم لم يخلق بهذه الطريقة، فهل الخطاب فى القرآن موجه إليه؟ نقول لهم: إن هناك فرقا بين مشهدية الخلق، وغيبية الخلق، والله سبحانه وتعالى حين خلق آدم كانت مشهدية الخلق، أى إن آدم عرف كيف خلق ورأى الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فهو غير محتاج إلى هذا التذكير، ولكننا نحن وكل من خلق بعد آدم، كانت هناك غيبية فى خلقه، أى إنه لم يعه ولم يشهده، ولذلك فإنه فى كثير من الأحيان يغيب عن عقله أن يتدبر فيه، ويأخذ الأشياء على أنها بديهيات، أو مجرد تفاعلات تتم، متناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى، الذى جعل من هذه الخلية الدقيقة كل الأجهزة المعقدة فى الجنس البشرى، ثم بعد هذا أعطاها كل أطوار النمو حتى الموت.

إذا كان الإنسان تغره قوته وقدرته، فالله يلفته إلى خلقه ويقول له: تذكر مم خلقت لتعرف قدرتي، ولا تغتر بنفسك، تذكر الخلية الدقيقة الصغيرة التي بدأ خلقك بها، وقبل ذلك كنت عدما، والله الذي أتى بك إلى الحياة، وهنا نلاحظ دقة المعنى في السورة الكريمة، فالله سبحانه وتعالى يريد لقدراته أن تطرق عقولنا دائما لتكون حاجزا واقيا لنا من المعاصي، فكلما أخذتنا الدنيا، وغرنا ما نحن فيه من جاه وسلطان ونفوذ طرقت قدرة الله عقولنا، لتذكرنا أن الله موجود، وأن هناك من يسجل علينا أعمالنا، وأن نتدبر في خلقنا لنرى القدرة، بعض الناس يتساءلون ما هي العلاقة بين النجم الثاقب والكرام الحافظين وخلق الإنسان؟ كلها أشياء قد يخيل للناس أنها غير مترابطة، ولكنها مترابطة تماما، وإن كانت تنتقل من موضوع إلى آخر في أشياء يبدو أنها لا علاقة لبعضها ببعض، بعض الناس يتساءلون ما هي العلاقة بين النجم الثاقب وخلق الإنسان مثلاً؟ ونحن نقول إنها تذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى، فالنجم الثاقب يذكر بأنه لا شيء يغيب عن علم الله مهما حاولت أن تذكره، والخلق تذكير بعظمة الله وقدرته بالنسبة للإنسان، وكيف أن هذه القدرة تأخذ خلية دقيقة لا تُرى بالعين المجردة لتصنع منها الإنسان الذي يسود الكون.

ثم تمضي السورة الكريمة، بعد أن ذكرتنا بالنجم الثاقب، والكرام الحافظين، وعظمة خلق الإنسان يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾، إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا كله من عدم وأوجده، وركبه من خلية متناهية في الدقة، أفلا يستطيع أن يعيده؟ القدرة هنا تقول: نعم.

ولنضرب مثلاً على ذلك - ولله المثل الأعلى - إذا أتيت بصانع صنع لك شيئا وتحطم هذا الشيء، أفلا يستطيع أن يصنع غيره، في هذه الحالة يكون عليه أهون، لأن الصناعة الأولى أكسبته خبرة تجعل إعادة صناعة الشيء أسهل وأيسر، وإذا كان ذلك في القدرات البشرية المحدودة، فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي بلا قيود ولا حدود وإذا كان الإنسان قد خُلق من عدم، أي إنه خلق من لا شيء ظاهر، فإنه حين يموت ويتحلل لا يخرج عن قدرة الله ؛ لأن الله في هذه الحالة يستطيع أن يعيده، وهو أسهل عليه فالخلق الأول من عدم، والخلق الثاني من شيء كان موجودا، ولا شك أن الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود، ونحن نقول هذا لنقرب المعنى إلى العقل البشري، وإلا فليس هناك عند الله سبحانه وتعالى سهل وصعب، بل كل شيء يخضع لكلمة ﴿ كُن ﴾.

والله حين يذكرنا بأنه على رجعنا لقادر، ليس لأن الله محتاج إلى خلق من خلقه، فالله غني عنا جميعا، لا يزيد في ملكه شيء إذا آمنا، ولاينقص من ملكه شيء إذا لم نؤمن ولكنه يذكرنا رحمة بنا لأن القرآن رحمة للناس جميعاً، وهو يريد أن تطرق عقولنا دائما عظمة الخالق وضآلة المخلوق، علّ هذه التذكرة تعود بنا إلى طريق الله، وتمنعنا من

المعصية فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾، أى لا تحسبون أنكم تستطيعون أن تخرجوا على سلطان الله أحياء أو أمواتا، أو تخرجون من قدرة الله أينما كنتم، وكيفما كنتم، وهذا الإعجاز فى خَلْق الإنسان يزيد إيماننا بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ثم تمضى السورة الكريمة فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾، وهى تمضى فى المعنى نفسه وهو أننا لا نستطيع أن نستر شيئا عن الله سبحانه وتعالى، والنية هى أساس الحساب عند الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩]، النية محلها القلب، وهى فى القصد الحقيقة الحرة للإنسان، فليس لأحد فى هذه الدنيا أن يجبر قلبك على ما لا تريد، قد يخضع جسدك ويجعلك تفعل ما يطلبه منك كرها وإجبارا، وقد يخضع لسانك ويجعلك تقول ما يريده خوفاً أو رعباً، وقد يخضع حركتك فيضعك فى السجن أو فى مكان لا تستطيع أن تغادره، كل هذه القوالب المادية للجسد تخضع للقهر إلا القلب، فلا إنسان يستطيع أن يخضع قلبك على شىء أنت لا تريده، وأن يضع فى القلب مشاعر لا ترضى أنت عنها، بل إنها فى داخلك فلو اجتمعت الدنيا كلها على أن تضع فيه مالا تريده أنت ما استطاعت، ولقد ترك الله هذه المنطقة فى حرية تامة لأن الحساب يكون عليها، ولكى يكون الحساب عدلا يجب ألا تتدخل أى قوة بشرية بالإكراه بل يخضع لإرادتك الحرة وحدها وهذه شهادة عليك لا لك..

ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى الحساب عن كل من يكره على شىء مادام مُستنكِرا له يأباه ولا يريده، حتى الإيمان والكفر، القمة فى هذه الحياة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وحتى الإكراه على الفاحشة فإن الله لا يحاسب عليها، فالحساب أساسه الإرادة الحرة التى هى فى قلبك ومشاعرك الحقيقية التى لا يستطيع إنسان أن يكرهك فيها على شىء، ولكن الله يحذرنا فى الوقت نفسه من أن نعتقد أننا نستطيع أن نخدع الله، فنقول: «أكرهنا»، مع أننا لم نكره، بل فعلنا طائعين مختارين، فهو يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾، أى يظهر الله سبحانه وتعالى حقيقة ما فى القلوب، ونحن مهما بلغنا من الذكاء والفطنة والعبقرية، قد نستطيع أن نخدع بشراً مثلنا، أو مجموعة من البشر، ولكننا لن نستطيع أن نخدع الله، وفى الآخرة يظهر الله ما فى أنفسنا واضحاً جليًا بعد أن كان الإنسان يخفيه فى الحياة الدنيا، والله لا يعلم السر فقط، ولكنه يعلمه ويظهره يوم القيامة، فإذا كنت قد حسبت أنك نجوت؛ لأن أحدا لا يعرف ما فى نفسك، أو حقيقة ما أخفيت، فإن الله سيظهر هذا فى الآخرة، فإذا أوجدت الفرصة لتعمل شيئا أنت متأكد أنك تستطيع أن تخفيه عن الدنيا كلها ولا تحاسب عليه، فاعلم أنك لن تفلت من حساب الله، فالسر يعلمه الله، وإذا كانت لك قوة فى الدنيا تحمى هذا السر من أن يكتشف، فإنه لن تكون لك قوة فى الآخرة.

وتمضى السورة الكريمة: ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ١٠]، القوة تنقسم إلى قسمين أساسيين، إما أن تكون قوة ذاتية تملكها أنت بأية وسيلة من الوسائل فتحميك كقوة جسد، أو قوة سلاح، أو أية قوة أخرى تقف منعة من أن يصل إليك القصاص، وإما أن يكون لك أقوياء ينصرونك على عدوك، كأن تكون من عائلة ذات عزوة أو يكون لك أقوياء مسلحون يقفون معك وينصرونك على عدوك، والسورة تمضى فى المعنى نفسه فهى بعد أن تُذكِّر الإنسان بألا يغتر بخلقه وإخضاع الكون له، تذكره بألا يغتر بقوته ولا بمن ينصرونه، وفى الآخرة لن تكون لك قوة من ذاتك، ولن تكون لك عزوة تنصرك وتعينك على من تظلم، ولكن لماذا التذكير هنا بالقوة، لأن القوة تُغرى الإنسان بالظلم والمظلوم هو ضعيف أخذ قويٌ حقه، فهو لا يستطيع أن يسترده، والذى يبغى فى الأرض ويتجبّر هو من له قوة تنصره وتُعينه على هذا؛ والله سبحانه وتعالى يقول لا تجعل الظلام يغرك بأنه سيسترك، ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يتركك هكذا، بل هناك حافظون يسجلون عليك كل ماتفعل، ولا تجعل غرور البشرية يأخذك، بعيداً عن الله، ولا تحسب أن ما تخفيه ينجيك، ولا تعتقد أن قوتك فى الدنيا، سواء أكانت قوة ذاتية أم من أهلك وأتباعك يمكن أن تحميك من الله، دع هذا يطرق عقلك فى كل ثانية، حتى تعرف قدرة الله فتتبع منهجه وطريقته.

الله سبحانه وتعالى حين يذكرنا بالآخرة، فلأن هذه هى أمنية كل إنسان أسرف على نفسه وأطلق لها العنان فى شهواتها بلا حساب، وأمنية الكافر الكبرى هى ألا يكون بعد الموت شىء، لأنه إذا استحضر الجزاء أصاب نفسه الخوف والهلع.

ثم تمضى السورة الكريمة، ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطارق ١١]، والرَّجع هو المطر، والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا هنا بحقيقة علمية هامة لم يكشفها الله لعباده إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين - ولقد عرفنا فيما كشفه الله لنا من علم بشرى أن مياه البحار تتبخر ثم بعد ذلك تصعد إلى السماء سحابا ثم تعود إلى الأرض مرة أخرى على شكل مطر، أى إن السماء ترجع الماء إلى الأرض، ومرة أخرى تتم الدورة، وتتبخر مياه البحار والمحيطات وينشأ السحاب ثم يعود الماء، أى إن الماء الذى يترك الأرض يعود إليها مرة أخرى، وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾، أى السماء ذات المطر هكذا تفهم لمن لا يعلم شيئا عن عملية البخر التى تتم، ولا يوجد فيها تصادم مع عقل بشرى يجهل هذه الحقيقة العلمية، فإذا عرفنا الحقيقة العلمية تكون الآية أدق فى المعنى وأشمل، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق ١٢]، أى الأرض التى تتشقق ليخرج منها الزرع، وهذه أيضاً تتكرر فى كل دورة زراعية، فتتشقق الأرض ليخرج منها زرع، ثم يأتى زرع جديد فتتشقق الأرض ليخرج منها المحصول الجديد كل شىء يأتى ويعود، هذه هى قوانين الله فى الأرض، وإذا كان كل شىء سيعود،

مثلما يأتى، فلماذا الإنسان وحده لا يعود؟!! إذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد جعل للماء دورة يعود بها إلى الأرض مطرا، وجعل الأرض تُعطى المحصول بعد المحصول إلى ما شاء اللّه فما الذى يجعل الإنسان يشذ ويقول: إنه لن يعود مرة أخرى إذا كانت دورة الحياة فيها عودة، واللّه سبحانه وتعالى أراد أن يبسط أمام عقولنا ويعطينا مثلاً لما يمكن أن يحدث فى عودة الإنسان، فأعطانا مثل الماء والزرع، ليبين لنا أنه قادر على إعادة الشىء مرات ومرات وأن المسألة ليست شيئا عسيراً، ولكنها شىء يسير جدًا يتكرر فى الحياة أمامكم، وتراه عيونكم كل يوم.

ثم تمضى السورة الكريمة ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ ﴾ [الطارق]، وهنا يعطينا اللّه سبحانه وتعالى عمق القضية وجديتها، فاللّه لا يسوق لنا كل ما تقدم لنأخذه باستخفاف ولكن لنأخذه بعمق وجدية، لماذا؟ لأنه فى الآخرة سيكون الفصل، ولن تكون هناك أى فرصة أخرى لإنسان، ليتوب أو ليرجع مرة أخرى إلى الحياة الدنيا، وما دام فصلا فهو نهاية، ليس بعدها إلا الجزاء، فلا يريد اللّه سبحانه وتعالى من أحد أن يأخذ هذا الكلام إلا بعمق وجدية.. حتى إذا جاء وقت الفصل لم تكن له حجة، ولم يقل لقد كنت أحسب أننى سأعود مرة أخرى إلى الدنيا، أو كنت أطمع فى رحمتك لكى تعيدنى إليها، وقد أعددت نفسى حين أعود على أن أعمل صالحا ترضاه، أراد اللّه أن يبطل كل هذا فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾، أى حكم لا رجعة فيه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى: ما سيلقاه العاصى فى الآخرة ليس هزلا، كأن يقول بعض الناس: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، أو يقولون: إننا كنا نحسن الظن باللّه، أو يتحدثون باستخفاف حول النار وعذابها، اللّه سبحانه وتعالى ينبههم أن هذه المسألة لا يجب أن نأخذها بهزل؛ لأنه سيكون يوماً عظيماً، وكل تذكيرى بهذا اليوم هو رحمة بكم، وهو بذلك يريد أن يلفتنا إلى هول اللقاء الذى سيتم فى الآخرة حتى لا نستخف به بل نأخذ كلام اللّه سبحانه وتعالى على أنه بقدرات اللّه، وقدرات اللّه ليس كمثلها شىء وكلما عظمت قدرة اللّه فى المؤمن نفسه أحس بالهول الرهيب فى يوم القيامة.

نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝ ﴾ [الطارق]، هنا يريد اللّه أن يلفتنا إلى أن هناك من يكيدون للمؤمنين، ويكيدون لمحاربة دين اللّه؛ وإذا سمعنا أو رأينا لفظاً لا يصح أن ينسب إلى اللّه سبحانه وتعالى مثل: اللّه يكيد وهم يكيدون، فلنعلم أن ذلك اللفظ لوقوعه فى صُحبة غيره يُبسط الأمور لنا، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] هل عندما نجازى صاحب السيئة يكون ذلك سيئة أيضاً؟. أبداً إنك عندما تجازى صاحب السيئة على سيئته يكون ذلك حسنة، وإنما سميت سيئة لوقوعها فى صحبة السيئة الأولى فالمعنى إذا كنت قد أسأت بفعلك هذا فنحن حين نعاقبك على ذلك نسىء إليك أى نعمل

شيئاً يصيبك بالسوء وإن كان هذا الشيء فى حقيقته هو شيئاً حسنا لأنه يدفع السيئة، أو على الأقل يجعلك لا تكررها مرة أخرى . . فإذا كان يدفع السيئة، وذلك شيء يسوؤك لأنك لم تصل إلى هدفك الذى كنت ترجوه فأنت قصدت بالسيئة إيذاء معيناً أو عملاً تسىء به إلى إنسان، وما دام الضرر لم يقع فإنك تحس أن كل ما قدرته وأعددته قد أبطله الله، فيسوؤك ذلك رغم أن ما حدث هو فعل حسن، وأما إذا قوبلت السيئة بالسيئة كأن تضرب إنساناً ضعيفاً فيأتى من هو أقوى منك فيضربك، فإنه فى هذه الحالة يكون ما حدث حسناً ؛ لأنه يعلمك ألا تفترى على الضعيف والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسلط عليك من هو أقوى منك، وتعلم أنه إذا غرتك قوتك فعليك أن تتذكر قدرة الله سبحانه وتعالى وحينئذ يكون الفعل الذى قوبلت به السيئة هو فعلا حسنا، وإنما سميت سيئة كما قلنا لوقوعها فى صحبة الأولى، فإذا كان أولئك الذين يكيدون ويخططون ويدبرون، يفعلون ذلك لإيذاء المؤمنين ومحاربة دين الله، فإن الله يواجههم بجنس عملهم نفسه ؛ أى إنه يتركهم يدبرون، ويدبر الله سبحانه وتعالى ما يبطل كيدهم.

ولذلك فعندما نرى أناسا يحاولون أن يستغلوا العلوم المادية فى صرف الناس عن الإيمان أو مستشرقين يدعون البحث فى الإسلام، وهم فى الحقيقة يحاولون أن يصلوا إلى أى تناقض ظاهرى يستغلون به عقول السذج والضعفاء، وعندما أرى من يجادل فى خلق السماوات والأرض إلى آخر ما يحدث أمامنا هذه الأيام، نعرف أن هؤلاء جميعاً يحاولون الكيد لدين الله، وتزيين الطريق المعوج، مستخدمين فى ذلك كل الوسائل.

وقبل أن نمضى فى الحديث عن هؤلاء الناس، يجب أن نلتفت إلى حقيقة هامة أن دين الله سبحانه وتعالى يشتد ويقوى عندما يوجد من يحاربه، فإذا رأيت الإسلام يُضطهد فى أى مكان فاعلم أن ذلك بداية ليصحو الدين فى نفوس المؤمنين ويصبح قويا عاتيا يعصف بمن يحاربه، وأى اعتداء على الإسلام إنما يعطى قوة دافعة لهذا الدين فى قلوب الناس ويعض المؤمنين يشفق من كيد الكافرين ضد الإسلام، إما خوفا من أن يؤثر ذلك على المؤمنين ويجذبهم بعيدا عن الطريق المستقيم، وإما جزعا أن يؤدى ذلك إلى ضعف الدين وانصراف المؤمنين عن عبادتهم، وكلا الرأيين غير صحيح، لماذا؟ لأن هؤلاء الكافرين يكيدون بقدراتهم البشرية، فهم يأتون فى قضايا يحاولون إظهار القرآن مع حقائق الكون مثل تفسيرهم الخاطئ لكروية الأرض الذى تحدثنا عنه فى الفصول السابقة وأثبتنا أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ [الحجر: ١٩]، دليل على كروية الأرض، أو يأتون فى محاولة لإظهار تناقض فى القرآن الكريم، كقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]، ثم قوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]

والحقيقة أن النفس الأولى التى يعنيها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ هى النفس التى ترتكب المعصية، فكل إنسان يحاسب عن معاصيه، ولا يسأل عما فعله غيره من المعاصى، أما النفس الثانية التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾، فهى النفس التى لا تكتفى بالمعصية، بل تحاول أن تضل غيرها وتدفعها إلى المعصية، فقد يكون هناك إنسان يصلى فيأتى شخص ويظل يجادله بالباطل حتى يصرفه عن صلاته، وقد يكون هناك إنسان يدفع إنسانا آخر إلى المعصية دفعاً، وهناك نوع ثالث يحاول أن يستخدم كل مهاراته ومنطق خداعه ليضل الناس عن سبيل الله، هؤلاء لا يحملون أوزارهم فقط ولكن ينالهم نصيب من أوزار الذين أضلوهم، وقد يأتى إنسان ليحاول أن يخرجك عن مفهوم الإيمان، بأن يجعل العبادات لغير الله، كأن يقول إن الصلاة مثلاً نوع من الرياضة إلى آخر ما نسمعه ونراه، ذلك كله نشهده هذه الأيام، ونراه أمامنا فى كل لحظة.

على أن الله سبحانه وتعالى فى ذكره لهذه الحقيقة، وهى أن هناك أناسا سيأتون ويكيدون لدين الله، ويكيدون للمؤمنين، من الآن وحتى قيام الساعة، لا يذكرها ليعلمنا بهم فقط ولكن ليؤكد لنا أنه إذا كان هؤلاء يكيدون، فهناك كيد الله سبحانه وتعالى، وهو أقوى منهم وأقدر، ومن هنا فإنهم إذا فعلوا لا يجب أن يدخل فى أنفسنا أى جزع أو خوف لأن الله لهم بالمرصاد، وإنى أعجب لبعض الناس يدبرون ويخططون ضد دين الله فى الأرض ولتعلو كلمة الباطل، وهم فى تخطيطهم هذا يعملون حساباً لكل خطوة، ويدرسون كل الاحتمالات، ومن كل الزوايا، ويتوهمون أنهم سينجحون فيما ينوون فعله، نقول لهؤلاء إنكم تنسون شيئاً هامًا وهو أن الله موجود وأنه يحفظ ويدبر، وأن الفرق هو أنكم تخططون بقدرة مساويكم من البشر، ولكنكم لا تشعرون بما يعده الله سبحانه وتعالى لكم. فالله سبحانه وتعالى يشعر بمكركم، وأنتم لا تعرفون ماذا يعد الله، والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثم يقول الله: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، لماذا قال الله سبحانه وتعالى إنه خير الماكرين؟ لأن ما يعده الله لا يعلمه أحد، وما دام لا يعلمه أحد فهو يأتى بغتة ليبهت أولئك الذين وضعوا كل مكرهم وحيلتهم فيما أرادوا أن يفعلوه، إنهم يكيدون كيدا للدعوة، وما داموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وأمام دين الله وقوف مواجهة بدأوا يمكرون، أى يعدون الخطط فى السر، ويتحايلون على مواجهة دين الله، ولكن كل ما يفعلونه مفضوح أمام الله، والله سبحانه وتعالى لا تنطلى عليه حيلة، ولا ينطلى عليه خداع، وهو يعرف أموراً يظن من يكيد للدين أنها خافية عليه، ولكن هذه الأشياء كلها هى عند الله بأدق أسرارها، ولذلك تفشل المخططات، وتنقلب على أصحابها، كما يحدث فى كثير من الأحيان، وربما تساءلوا عن السبب؟ والسبب واضح، فهم قد نسوا قدرة الله سبحانه وتعالى، وهى القدرة الحقيقية فى الكون، واتجهوا إلى الأسباب، وهى تعطى،

ولكن بأمر الله، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعطل الأسباب إذا شاء. . ويجعلها تعطى إذا شاء، ومن هنا فالكون كله خاضع لمشيئته، وليس لقدرة البشر بالأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى للعيش على الأرض، وإننى أقولها بصراحة، ما من إنسان قدر شيئا ونسى قدرة الله سبحانه وتعالى، إلا جعل الله من أسباب هذا الشيء ما يأتيه بعكس ما يطلب، ثم سلط عليه نفسه وتركه فى الدنيا يذهب هنا وهناك، ويخطط ويدبر، ويتمزق قلقاً وخوفاً دون أن ينال شيئا.

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يدخل الطمأنينة إلى قلب المؤمنين، وبنفس وحدة المعنى التى فى السورة الكريمة، سورة الطارق، بأن تطرق قدرة الله عقلك كل دقيقة، ولا تغيب عنه أبدا، ففى حالة الإثم والعدوان تطرق قدرة الله عقلك لتذكرك أن محاولة أى كافر للنيل منك، لن يتركها الله سبحانه وتعالى تنجح، وهو يعلم كيد الكافرين وقادر على أن يعطيهم ويجزيهم أضعاف أضعاف ما يكيدون لدين الله، حين تتذكر ذلك تدخل الطمأنينة إلى قلبك، وتواجه أى قوة فى العالم دونما خشية إلا من الله.

ثم تأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾، الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يمهل الكافرين وينتظر أمر الله فيهم، وبعض الناس يستعجل الجزاء، ويريد أن ينزل الله سبحانه وتعالى بالظالم الجزاء فور ظلمه، وبعض الناس يتساءل فى كثير من الأحيان وهو يرى إنسانا طغى وبغى، أين عدل الله وأين قدرة الله، نقول له إن عدل الله موجود، لا يفلت منه أحد، وقدرة الله موجودة، لا يستطيع أحد أن يخرج منها، ولكن الحكمة من الخلق كله تنتفى لو أن كل سيئة قوبلت بالجزاء فى اللحظة التى تتم فيها. . والله سبحانه وتعالى يريد من عبده المؤمن أن يأتيه اختياراً، لا إجباراً، فالفرق بين الإنسان وباقى المخلوقات أن الإنسان قادر على الاختيار، ولذلك فالله لا يريد أن يجبر الناس على الإيمان، ولو أراد لأنزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم خاضعة لها إلى يوم القيامة، ولما كلفهم هذا شيئا، والاختيارية هنا تقتضى شيئين أساسيين، أن تكون قادرا على أن تفعل، وقادرا ألا تفعل، وأن يتم اختيارك بحبك لله دونما قهر على نفسك، وأن يتعاظم هذا الحب ليتغلب على كل معصية مزينة لمتعة وقتية.

هذه حكمة الخالق، أما الحكمة من الخلق، فهى فى المقارنة الدائمة بين ما هو مسخر لنا وما لم يسخر لنا، هذه المقارنة الدائمة المستمرة، آية يومية لكل من تبعد نفسه عن الإيمان إنه جبار فى الأرض، نسى الله وحسب أنه ملك الدنيا ومن عليها، وأخذ يملأ الأرض ظلما وطغيانا، يأتى الله ليسلط عليه أدق مخلوقاته وهى الميكروبات، فيصبح عليلاً مريضاً لا يقدر على المشى، وربما لا يقدر على الكلام. وهنا تظهر حكمة الخالق أمام خلقه حينما يرون هذا الجبار وقد أذله المرض، فيصيحون «سبحان الله»، وتتجلى القدرة الإلهية أمام هؤلاء الذين ينسيهم بريق الدنيا وزخرفها قوة الله وقدرته.

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾. . والغاسق هو الليل، و ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ معناها إذا دخل بظلمته. . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا، أنا خلقت الليل والنهار، وجعلت النهار مضيئاً آمناً لتسير حركة الحياة فى الكون، وجعلت الليل ساكناً مظلماً لتنام فيه وتستريح، وتصبح قادراً على حركة الحياة فى اليوم التالى ولكن الليل ظلمة، والظلمة تخفى الأشياء، وتغرى بالشر، ومعظم الجرائم والشرور ترتكب فى الليل، وأنت فى النهار قد ترى عدوا يتربص بك، أو تلمح حشرة يمكن أن تؤذيك وتشعر بالأمن والأمان لأن الدنيا حولك مليئة بالحركة والحياة، ولكن ذلك ينتفى مع ظلمة الليل ومن هنا فأنا أعطيك نعمة الأمان بالليل كالنهار، وهى أن تستعيذ بى، ثم تنام هانئاً مطمئنًا، لأنى أنا الله الحى القيوم، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، فأنت إذا استعذت بى ستنام فى حراستى وأنا لن أغفل لحظة واحدة ما دمت قد لجأت إلىّ واستعذت بى، فلا تخش أن تأخذنى سنة من النوم، أو أغفل عن أى شىء ؛ لأننى لا أنام، ولا يفوتنى شىء مما يحدث فى الدنيا، ظاهراً أو باطناً، وحراستى لك لا تستطيع جيوش العالم كله أن تمنحك إياها، فإذا جاء الليل فاستعذ بى ونم آمناً مطمئنًا فأنا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، لن أغفل عنك لحظة، ولن أتركك ثانية، بل ستكون دائما فى حراستى بقدراتى التى لا تستطيع أن تصل إليها كل المخلوقات.

وتمضى الآية الكريمة فتقول: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤]، ولقد وقف العلماء عند هذه الآية الكريمة وقفة طويلة، فقد قالوا: النفاثات هن الساحرات ولكن فرعون كان له سحرة، ومن هنا أطلق بعض العلماء النفاثات على السحرة على إطلاقهم الذكر والأنثى، وحدث الخلاف، لماذا؟ لأننا نواجه قضية غيبية وليست قضية عقلية، فأنت لا تستطيع أن تدخل السحر فى المعمل، ولا تستطيع أن تضع مواصفات له ؛ ولذلك فإن هذه الأشياء كانت ولا تزال محل جدل كبير، فبعض الناس ينكرها إنكاراً تامًا على أساس أنه لا يصدق إلا ما يراه، ونحن نقول له: هل كان أجدادنا يرون الميكروبات والفيروسات كما نراها الآن، الجواب: كلا، لأنها كانت غيباً عنهم، ولكن كونها غيبا لا يمكن أن ينفى وجودها، وكوننا حين اخترعنا الميكروسكوب ليكبر ألوف المرات، فإن هذا الاختراع لم يوجد الميكروبات والفيروسات، ولا يستطيع أحد أن يقول إنه خلقها، ولكنه فقط أزال سترا من الأستار التى كانت موجودة على عقولنا، فاستطعنا أن نرى ما كان موجوداً ولكن لم نكن نراه، ولله فى ذلك حكمة كبيرة، فهو يكشف لنا كل يوم عن أشياء فى الكون كانت غيبا عنا، وربما لم نكن نصدقها لنراها أمامنا رأى العين، وتصبح حقيقة واقعة ليقول لنا هذا ما كان غيبا عنكم، وكانت تنكره عقولكم لأنكم لا ترونه، قد أصبح حقيقة واقعة أمامكم، وعرفتم أنه موجود ؛ حتى إذا حدثتكم عن غيب لم تروه حتى الآن، فاعلموا أن عدم رؤيتكم له لا ينفى حقيقة وجوده.

وما دام الله سبحانه قد ذكر السحر فى القرآن الكريم، وذكر السحرة، فلابد أن يكون هناك سحر وسحرة، ولكن العلم لا يعرف شيئاً عن السحر، ونحن نقول لهم: هذه قضية غيبية قد تكون علماً غداً، وبعد غد، ولكنها حقيقة ما دام الله تعالى قد أخبرنا عنها.

لكن ما هو السحر أولاً (١)؟ يقول الله سبحانه وتعالى، ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، والسحر نوعان: نوع فيه قدرة البشر، ونوع فيه الاستعانة بقوى غير قوى البشر. النوع الأول وهو ما فى قدرة البشر لا يغير طبيعة الأشياء وإنما يصورها فى عين الإنسان بغير شكلها الحقيقى، أى إن العين هى التى تُسحر، والنظر هو الذى يخدع وليست المادة هى التى تتغير مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾.

وإذا تتبعنا السحر من أبسط ما يقوم به البشر إلى أكبر ما يقوم به الذين يستعينون بغير البشر نجد أنه فى أبسط أشكاله خداع للنظر، بالسحرة البسطاء الذين يقدمون الألعاب فى الحفلات «الحواة»، يعتمدون على خداع النظر أو خفة اليد؛ ذلك أنهم يتدربون على تحريك اليد بسرعة لا تلحظها العين، وبذلك يحسب الإنسان أن ما يحدث أمامه هو تغير لطبيعة الأشياء، والحقيقة أن ما يحدث هو خداع للنظر، والنظر يخدع بأشياء كبيرة السراب تحسبه العين ماء، وبعض ألوان الطيف تبدو كأطباق طائرة للعين، والحركة السريعة لا تستطيع أن تصل إليها عين الإنسان، وأنت إذا أدرت مروحة كهربائية وحاولت أن تحدد شكلها وهى ساكنة لا تستطيع إلا بعد أن توقف دورانها لتراها ساكنة أولاً، فخداع النظر لا يُمكنك من معرفة الشكل مع الحركة السريعة.

إذن.. فخداع النظر نوع من السحر، وهذا معروف الآن لا جدال فيه، والسحرة الذين يقدمون بالألعاب السحرية يعتمدون على سرعة حركة اليد، فيخدعون العين، ويبدون وكأنهم يأتون بنوع من السحر.

هذا تفسير بسيط ليفهم الناس أن السحر لا يغير طبيعة الأشياء، وإنما يسحر العين، فترى ما يريده منها الساحر أن تراه، هذا إذا كان السحر مجرد استعراض للقدرات، أما إذا كان السحر للشر، فلا يمكن أن يصل الساحر إلى مراده إلا إذا أضاف الرعب والرهبة بجانب خداع النظر؛ أى إن الساحر يجب أولاً أن يدخل الخوف فى قلب المراد التأثير عليه بالسحر حتى يخضعه تماماً، ويجعله يفعل ما يريد، ومن هنا فإن بعض هؤلاء السحرة يستعينون بأصوات مخفية، أو بجماجم وعظام الموتى، المهم أنهم أولاً يدخلون الرعب إلى نفوس الناس، ثم بعد ذلك يسحرون أعينهم ويستخدمونهم فى الشر والإيذاء، ونادراً ما يمارس

---

(١) لمزيد من الفائدة اطلب كتاب: «السحر.. الحقيقة والعلاج» لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوى وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى.

مثل هؤلاء السحرة أعمالهم فى ضوء النهار، بل هم يمارسونها دائماً فى غرفات مظلمة وسط أصوات مثيرة للرعب، يتسلط من خلالها الساحر على المسحور. ورغم أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء، فإنه بإدخال الرهبة إلى القلب مع استخدام سرعة الحركة واليد المدربة، والحيلة المتقنة، يخيل للرائى أنه يرى قوى خارقة ويخضع لها تماماً، ولذلك عندما واجه السحرة موسى عليه السلام وألقوا حبالهم وعصيهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

واستخدام كلمة: ﴿يُخَيَّلُ﴾ التى استخدمها الله سبحانه وتعالى يجب أن نلتفت إليها وهى أن السحرة لم يغيروا طبيعة الأشياء، ولكن خيل للحاضرين أن حبال السحرة وعصيهم هى حيات وأفاع تسعى، فاستخدام الله سبحانه وتعالى كلمة ﴿يُخَيَّلُ﴾ معناه أن الحبال والعصى لم تتغير طبيعتها إلى حيات، ولكن جو الرعب الذى أحدثه السحرة بجانب حيلتهم وخفة أيديهم قد خدع أعين الناس، فجعلهم يتخيلون أنها أفاع وثعابين، حينذاك ماذا حدث، ألقى موسى عصاه، فإذا هى حية تسعى وتلقف ما يأفكون، حينئذ سجد السحرة لرب موسى، وصدقوا أنه رسول، لماذا؟ لأنهم أيقنوا أنه ليس ساحراً، فهم أعرف الناس بخداع النظر، وهم أعرف الناس بفنون السحر، وهم أعلم الناس أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء، ولكن طبيعة الشىء هنا قد تغيرت.. وتحولت عصا موسى إلى ثعبان هائل، هذا ليس من صنع ساحر.. ولكنه من قدرة الله سبحانه وتعالى، وكان السحرة أول الساجدين؛ لأنهم أيقنوا أن موسى رسول صادق مُبلِّغ عن ربه.

لقد دخل موسى هذه التجربة بعد أن دربه الله سبحانه وتعالى، ليعلم الفرق بين السحر والمعجزة، وحتى لا يسحره السحرة ويسترهبوه، فقال له الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝﴾ [طه].

حينئذ أوجس موسى خيفة بعد أن رأى العصا التى كانت فى يده تتحول إلى حية هائلة فقال له تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

أعادها الله مرة أخرى عصا.

لماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك مع موسى؟ يجب أن نعرف أن كل شىء يحدث له حكمة، لا شىء فى أمر الله يحدث عشوائيا، أو بلا هدف، وهذه معجزة ليست فى تحويل العصا إلى حية فقط، ولكن ما حدث نفسه هو إعجاز، ذلك أن الله فى علمه أن فرعون سيأتى بالسحرة ليحاول أن يهدم بهم رسالة موسى عليه السلام، وأن هؤلاء السحرة سيخدعون الناس ويسحرون أعينهم، فدرب الله سبحانه وتعالى موسى على تغيير طبيعة الأشياء ليستطيع أن يتبين الفرق بين السحر والمعجزة، ولو أن الله سبحانه وتعالى أدخله التجربة بدون تدريب، لكان موسى عندما رأى العصى تنقلب إلى حية، خاف وذعر وربما

حاول الابتعاد عن المكان حتى لا يؤذى، وكانت هذه كافية لتدخل الشك فى قلوب من آمن، ومن سيؤمن، فما دام الرسول نفسه قد خاف من السحرة فلابد أنهم هم الأعلى ومن هنا جاء الله سبحانه وتعالى برسول ودربه أولاً، فزالت الرهبة من نفسه ورأى الفرق بين الحية الهائلة التى تحولت عصاه إليها وبين كيد السحرة الذى لا يمكن أن يقارن بقدرة الله سبحانه وتعالى، وحين واجه السحرة، كانت التجربة فى قلبه تحميه، ومع ذلك ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه : ٦٧].

فقال له الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝ ﴾.

وكذلك أيد الله نبيه ليثبته مرتين ؛ مرة بتحويل عصاه إلى حية تسعى، ومرة أخرى بتأييده عندما أوجس فى نفسه خيفة من السحرة.

على أن هناك لفتة إيمانية وهى إيمان السحرة بربهم، ولقد آمن السحرة بالله قبل أن يقتلهم فرعون بساعات، وبذلك دخلوا الجنة. وهذه الواقعة، تجعل الإنسان لا ييأس أبداً من رحمة الله ؛ ذلك أن هؤلاء السحرة ظلوا على كفرهم، وجاءوا ليحاربوا دين الله بسحرهم ثم آمنوا حينما رأوا المعجزة، وكان الإيمان قبل أجلهم بساعات فغفر لهم.

إذن.. فالسحر بالنسبة للإنسان العادى أو بالنسبة للبشر الذين لا يستعينون بقوى أخرى قد بينه الله سبحانه وتعالى ووضحه بأنه يعتمد أساسا على خداع الأعين وإدخال الرهبة فى النفوس والحيلة، هذه الأشياء الثلاثة تجعل المسحور يستسلم لإرادة الساحر، متوهماً أنه يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء وأن يأتى بمعجزات. والله سبحانه وتعالى يأمرنا بألا نخاف هذا النوع من السحر ولا نخشاه، وإذا حاول أحد أن يدخل الرهبة فى قلوبنا بهذا النوع من السحر، فعلينا أن نستعيذ بالله فلا يستطيع أن يؤثر فينا.

هناك نوع آخر من السحر، يعتمد على قوى أخرى غير قوى الإنسان، وإذا أردنا أن نوضح ذلك فعلينا أن نقرأ فى سورة النمل قصة ملكة سبأ.. فعندما أراد سليمان أن يأتى بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى بيت المقدس: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨].

ولم يُحدد سليمان الذى أُعطى من الله السيطرة على الجن والإنس، لم يحدد من يحضر عرش ملكة سبأ ؛ لأنه يعتبر خرقا لقوانين البشر، وربما لا يكون خرقا لقوانين الجان، أو لقوانين مخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئاً، ولكنها بطبيعة قوانينها والخواص التى أعطاها الله لها، تستطيع أن تقوم بهذا العمل.

ماذا حدث عندما طلب سليمان القيام بهذه المهمة، وما معنى طرح السؤال ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾، معناه أن بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم فى الطريق إليه، وهو

يريد واحداً أن يذهب إلى اليمن ويأتى بالعرش. وبلقيس ومن معها مازالوا فى الطريق إليه ويصل العرش قبل أن تقطع بلقيس ملكة سبأ ومن معها المسافة الباقية بينها وبين مكان سليمان عليه السلام.

هنا ملاحظة هامة، من الذى تكلم، هل تكلم بشر عادى، وقال أنا أستطيع أن آتيك به؟ لا. لأن هذا فوق قوانين البشر وقدراتهم، هل تكلم الجن على طلاقته؟ لا. إنما الذى تكلم هو أقوى الجان وليس جنا عاديا، ولذلك كان المتكلم هو فرداً واحداً، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ إذن.. فالذى تكلم ليس الجن على طلاقته وإنما أقوى الجن الذى يقدر على هذه المهمة الصعبة، وحينما تكلم أقوى الجان أعطى زمنا يتناسب مع القانون الذى يتبعه، أى الذى خلقه الله له، فقال: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل: ٣٩].

أى قبل أن يقوم سليمان من مجلسه، وكم يستغرق مجلس سليمان، ساعة، ساعتين ثلاث ساعات، المهم أنه حدد مدة زمنية طويلة إلى حد ما حتى يأتى بالعرش.

هنا تدخل الذى عنده علم من الكتاب، لماذا؟ لأن الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى علماً من الكتاب سيأخذ قانوناً أقوى من قوانين الجان. ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠].

هنا يجب أن نتنبه إلى الحكمة الكبرى، فكل خلق فى حضرة سليمان يتكلم بالقانون الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى له، فالإنسان من طين، مادة عتمة، الله سبحانه وتعالى جعل قوانينه تناسب خلقه، ولذلك عندما عرضت مسألة إحضار العرش لم يتقدم إنسان ولم يقل واحد من الحاضرين من البشر، أنا آتيك به إذا أعطيتنى عدداً من الجياد القوية أو أى شىء آخر، وإنما سكت البشر على إطلاقه، لأن قوانينه تمنعه من التعرض لهذه المسألة.

ولم يتكلم الجن العادى، لأنه لا يقدر على هذه المهمة، رغم أن قوانينه قد تؤهله لأن يقوم بهذا العمل.. فالجن بقوانينه أخف وأقوى من البشر، ويستطيع أن يقطع مسافات أسرع وأن ينفذ من المادة، وهذا قانون أعطته له طبيعة خلقه من نار، والنار لها قوانين غير الطين أقول: سكت الجن على طلاقته خوفا من فشله فى هذه المهمة، ونطق أقواهم وهو عفريت واحد، ولكن الذى عنده علم من الكتاب استطاع أن يتجاوز كل القوانين، وأن يأتى بعرش ملكة سبأ فى لا زمن تقريبا بما أعطاه الله من علم الكتاب، والجميع استمدوا قوانينهم من الله سبحانه وتعالى.

وهكذا يجب أن نعلم أن لكل خلق قانونا، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من هذه القوانين ما يجعل من بعض خلقه قادرا على أن يفعل مالا يستطيعه البعض الآخر، وجعل الذى عنده علم من الكتاب يستطيع أن يخرق القوانين كلها، لتبقى له سبحانه وتعالى وحده القدرة على أن يغير طبيعة الأشياء، ويعطى للأدنى ما يجعله فوق الأعلى،

فهو أعطى لبشر من قوانين الكتاب ما جعله يتفوق على جميع خلقه، ويأتى بعرش ملكة سبأ فى لا زمن تقريبا.

وبعض الناس يستعين فى السحر بقوى لها قوانين تفوق قدرة الإنسان، فيستعين بالجان والشياطين.

وهنا نأتى لقصة هاروت وماروت، وقبل أن نبدأ هذه القصة يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون على أساس الفرص المتكافئة ؛ أى إن لكل إنسان فى الحياة الفرصة نفسها المتساوية التى للإنسان الآخر، فإذا استعان إنسان بقوى لها قوانين تفوق قدرة البشر، فإنه أخذ فرصة غير متكافئة مع سائر البشر، وهو حين يأخذ هذه الفرصة، إنما يتحدث كذبا أنه سيستخدمها من أجل الخير، ولكن قدرته تغريه فيبدأ فى استخدامها فى الشر والإيذاء وحينئذ يسلط الله عليه القوة نفسها التى استعان بها فتؤذيه، ويموت إما منتحرا أو مجنونا أو فى فقر مدقع، والمهم أن نهايته دائماً تكون سيئة مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

تلك لمحة سريعة، سنتحدث عن ذلك بالتفصيل..

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة ١٠٢].

ولهذا قصة تروى ؛ فقد قيل إنه عندما أعطى الله سليمان الملك كان الشياطين يستخدمون السحر فى الإفساد فى الأرض، فقام سليمان بجمع كل تمائم هذا السحر ودفنها فى الأرض، ولما مات سليمان، قالت الشياطين: إنه كان يحكمهم بالسحر، ودلت على المكان الذى أخفى فيه هذه التمائم فتم استخراجها.

نعود إلى الآية الكريمة: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾، أى إن الشياطين حاولت الخداع بأن سليمان قد أوتى ملكه عن طريق السحر وليس برسالة من الله سبحانه وتعالى، ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى يبرئ سليمان من هذه التهمة، ويقول إنه لم يكفر، بل أوتى رسالة حقيقية من الله سبحانه وتعالى، وإذا كان سليمان لم يكفر، فالذين كفروا هم الشياطين التى أطلقت هذه القصة غير الحقيقية على سليمان.

وتمضى الآية الكريمة: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾.

وإذا وقفنا عند هذه الآية، نجد كلمة ﴿ يُعَلِّمُونَ ﴾، أنه بجانب السحر البشرى الذى هو خداع البصر، يوجد سحر من أجناس أخرى هى الشياطين، وأن الذين يمارسون هذا النوع من السحر من الشياطين هم كفرة، أو مردة عاصون لله سبحانه وتعالى، والشياطين بحكم قوانيها تستطيع أن تتشكل فى أشكال مختلفة مثل الحيوانات والإنسان أحيانا إلى آخر ذلك وهى حين تتشكل فى هذه الأشكال فإنه يحكمها قانون الشكل، وهذا رحمة من

الله سبحانه وتعالى لأنه لو كانت الشياطين تستطيع أن تتشكل بأشكال مختلفة، ولا يحكمها إلا قوانينها، لكانت الحياة على الأرض عملية صعبة للإنسان، ولتحكمت فيه الشياطين وأزعجته، ولكن كونها محكومة بقانون الشكل الذى تتشكل به، فإنها تخشى إن هى بقيت فيه أكثر من لحظات أن يستطيع الإنسان القضاء عليها، فإذا تشكل الشيطان فى شكل إنسان، أو قرد أو حمار، فإنك إذا أطلقت عليه الرصاص أو ضربته بسكين قتلته، وهو يعرف ذلك، ومن هنا فإنه لا يبقى على هذا الشكل لأنه يعرف أنه معرض للخطر من الإنسان، فلا يتشكل إلا للحظات، ثم يعود إلى طبيعته، وهذا التشكل هو الذى تقوم به الشياطين لخداع البشر، وأحيانا يتشكل الشيطان على شكل قبيح جدا ويقف بين المرء وزوجه، وكلما نظر الزوج إلى زوجه وجدها على صورة قبيحة تجعله يكرهها.

وتمضى الآية الكريمة . . ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

نأخذ من هذه الآية الكريمة عدة مبادئ:

أولها: أن السحر بهذه الطريقة أى بطريقة التشكل لحجب الحقيقة عن الرائى إنما هو من قوانين الجن، أما الإنسان فلا يملك من فنون السحر غير خداع البصر.

وثانيها: أن هذا السحر نزل به ملكان هما هاروت وماروت.

وأن كل من أذن له الله ليتعلم على أيديهما قالا له: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾؛ أى: إن هذا النوع من السحر هو فتنة للبشر، وكل من يتاح له معرفة أسراره، إنما هو معرض للكفر لماذا؟ لأن هذا النوع من السحر يعطى الإنسان فرصة كبرى على غيره من بنى جنسه، وإذا ملك الإنسان الفرصة يستطيع أن يتحكم فى بنى جنسه بقوى أكبر منه فإنه بهذه الحالة يجد نفسه متجها إلى الظلم والبغى والكفر.

ولنوضح هذا قليلا؛ هب أننا نعيش فى قرية صغيرة، وأتيح لأحد أفراد هذه القرية أن يحصل على بندقية أو سلاح نارى، إنه عندما يحصل عليها يقول: إننى سأستخدمها فى حماية نفسى ودفع الأذى عن أهل بيتى، ثم بعد ذلك يجد أنه يستطيع أن يخضع بها أهل القرية كلها، فيبدأ فى فرض الإتاوات والإرهاب والإفساد فى الأرض، وهكذا تعطيه الفرصة غير المتكافئة إغراء كبيرا للإفساد.

ولكن لماذا أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة؟ الفتن كلها هى امتحان للإيمان، المال فتنة، والولد فتنة، والنفوذ والسلطان فتنة، والترف فتنة، وهذه الفتن كلها إنما وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون كامتحان للبشر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

إذن . . فالفتن كثيرة فى الكون، يأتى إنسان فيقول: اللهم ارزقنى مالاً لأتصدق وأكون من الصالحين، فإذا رزقه الله المال، منع الصدقة وأخذ حق اليتيم والمسكين!

ويأتى آخر ويقول: اللهم ارزقنى ولداً أو أولادا يكونون عزوة لى، فإذا أعطاه الله الأولاد استخدمهم ليرهب بهم الناس ويفرض الإتاوات، وهكذا، وكل هذا يدخل فى معنى الأمانة، أى: إن الله سبحانه وتعالى حمل الإنسان الأمانة . . ومعنى ذلك أنه حمله وديعة عنده، والمهم هو وقت الأداء، وإذا أردنا أن نوضح هذه النقطة قليلا، فإن الله قد عرض على الإنسان الأمانة أى حرية الاختيار، فى أفعل ولاتفعل، ويأتى الإنسان يقول: رب بما أعطيتنى من حرية الاختيار فإننى سأعبدك حق عبادتك وأصلح فى الأرض، ويمضى الإنسان ليفسد فى الأرض بدلا من أن يصلح فيها، ويهلك الحرث والنسل، ثم يأتى وقت أداء الأمانة، وهو ساعة الموت، وهنا المفروض أن يقدم الإنسان حسابا لخالقه، ولكنه لا يستطيع الوفاء بما وعد، ويأتى وقت السداد فلا يجد شيئاً يقدمه، وكذلك الإنسان الذى يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعله قادرا على تسخير قوى فوق قوى البشر، ويقول يا رب أستخدمها فى الخير . . ويستخدمها فى الشر وإيذاء الناس، ثم يأتى وقت يجد فيه أنه قد خان عهد الله ولم يرع الأمانة، وكل ما يصيب الإنسان فى هذه الدنيا من فتن، هو اختبار للإيمان. فالإنسان يطلب والله يعطيه ليختبر إيمانه، وليس لأن الله لا يعلم هذا الإيمان، ولكن ليكون الإنسان شهيداً على نفسه، فيجادل ويقول لو أننى أعطيت لفعلت الخير، ولكنه يعطى الإنسان ليفعل الشر ليكون شهيداً على نفسه، والإنسان العاقل هو الذى يبتعد عن هذه الفتنة ويقول يارب أنا لا أضمن نفسى وأخشى أن أفتن فى إيمانى فلا أريد شيئاً لا أقدر عليه، مثل هذا الإنسان يكون بعيدا عن الفتنة، لأنه عرف ضعف النفس البشرية فرفض أن يحمل أمانة لا يستطيع الوفاء بها، مكتفيا بما حمله الله فى أفعل ولا تفعل وهذا الإنسان عادة ليس له صلة بعوالم أخرى وإنما يحيا الحياة الطيبة . . ولكن من لهم تطلعات فى الدنيا هم الذين يطلبون الفتن ثم يسقطون فيها، والفتن كما قلنا: امتحان للنفس البشرية وامتحان عسير.

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة، تقول: إن السحر عند البشر هو بإخضاع قوى غير بشرية للإنسان يستعين بها، وهذه القوى، قوانيها غير قوانين البشر فهى تستطيع أن تقطع المسافات فى زمن قياسى، وتستطيع أن تتشكل بأشكال معينة، ومن هنا فإنه يمكنها أن تأتى بأشياء بعيدة فى زمن بسيط، أو تقوم بالتشكل حسب إرادة البشر التى سخرت له.

ولما كان هذا السحر من قوانين الجن والشياطين، فإن الله سبحانه وتعالى قد أطلعنا على ما يمكن أن يفعله، فتقول الآية الكريمة: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

إذن.. فالخير ممتنع هنا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد لمثل هذا السحر ما يمكن أن يؤديه، فهو يُستخدم فى التفرقة بين المرء وزوجه، أو فى بث الكراهية فى العائلة الواحدة أو فى ارتكاب الجرائم والسرقات، المهم أنه يُستخدم فيما يضر ولا ينفع ؛ والضرر هنا يضر الاثنين معا.. مَن استخدم السحر، ومن استُخدم ضده السحر، ولكن الله وَقَى من استُخدم ضده السحر، وطلب منه أن يستعيذ به ويقرأ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق]، ومن هنا وضع الله سبحانه وتعالى سِيَاجاً للوقاية للمؤمن، فالاستعاذة بالله، وقراءة القرآن الكريم وقراءة سورة الفلق، ومن يفعل ذلك لا تمسه مثل هذه الأشياء.

على أنه فى قوله الله تعالى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾، معناها أن الذين يتعلمون هذه الأشياء يقع عليهم الضرر ؛ ذلك لأنهم استغلوا الفرصة غير المتكافئة فى الشر ومن هنا فإن الذى يستعين بهذه القوى تجد أن رزقه قد وضع فى يد من هم أدنى منه ؛ أى إن الله سبحانه وتعالى يرزقه على يد من هو أقل منه علماً بتلك القوانين، هذه واحدة والثانية أن الله يسلط عليه مَن استعاذ بهم من الجن، فتحدث له الكوارث فى نفسه وأولاده وبيته، لايستطيع أن يواجهها، وتكون نهايته أسوأ نهاية، فيموت فقيرا، مصابا بالكوارث كافرا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

أى: إنهم باستعانتهم بهذه القوى غير البشرية لا يزدادون خيراً ولكن يزدادون رهقاً وعنتاً ثم يصل بهم الحال إلى الكفر والعياذ بالله، وهكذا تكون الفرصة غير المتكافئة وبالاً على صاحبها، لا يرى فيها خيراً أبدا، ولكن يعيش فى بؤس وشر ورعب حتى ينتهى أجله كافرا.

فالسحر سواء كان بقانون البشر، أم بقانون غير البشر، لا يغير طبيعة الأشياء، ولكنه بقانون البشر هو خداع للعين واسترهاب للنفس، وبقانون غير البشر هو أشياء تحدث بقوانين مخلوقات أخرى يخيل لنا نحن المحكومون بقانون أدنى، أن أشياء قد تغيرت ولكنها فى الحقيقة لم تتغير، بل تشكل شيئاً ما، بين بصرك وبين حقيقة الأشياء، وهى فى الحالتين استخدام لنوع من الخداع بقانون البشر، أو بقانون غير البشر، تسترهب الناس وتفتنهم وتسحر أعينهم فيخضعون لها، والحقيقة أن السحر تخيل وسيطرة على المرء، سواء بقوانين متساوية أو بالاستعانة بقوى أخرى، والذى يحدث مجرد تخيل يوقع الإنسان تحت سيطرة الساحر. ولكن ذلك كله لا يصيب الإنسان المؤمن، لأن الإيمان يجعلك تعرف يقيناً، أنه لا يوجد جنس فى الكون يستطيع أن يغير طبيعة المادة، والإنسان المؤمن الذى يستعيذ بالله دائماً لا يمكن أن يصيبه كيد ساحر مهما كان ؛ لأن الله يدافع عن الذين

آمنوا ويقيهم كل شر، والإنسان الذى يريد الشر للمؤمن لا يصيب به إلا نفسه، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، ثم أن الله سبحانه وتعالى قد حكم على هؤلاء الذين يحاولون بالسحر خداع البشر واسترهابهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أى إن الذين اشتروا بالإيمان خداع الناس واسترهابهم ليس لهم فى الآخرة عند الله أجر، بل لهم عذاب مهين، لما اشتروا الكفر بالإيمان، والله سبحانه وتعالى لا يمكن كافراً من مؤمن، فالذى يخيل إليه أنه بالسحر واستخدام الشر قد نجح يقول له: إنك وقعت فى فتنة، وتمضى الأيام، ويجد الإنسان الذى أراد الشر بالناس أن هذا الشر يعود إليه ليصبح ذليلاً منبوذاً تسلط عليه الكوارث، وتأتى الآخرة، فإذا هو كافر ليس له فيها نصيب.

بقيت بعد ذلك مسألة الحسد، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، ما هو الحسد؟ الحسد هو تمنى زوال النعمة، بمعنى أننى أرى إنسانا فى نعمة فأتمنى زوالها عنه وأعمل فى سبيل ذلك، ولكن هل للحسد علاقة بالعين علاقة مادية، أو أن الأعمى لا يستطيع أن يحسد مثلا، هذا خطأ شائع؛ فالأعمى والمبصر كلاهما يستطيع الحسد، أى: تمنى زوال النعمة عن شخص آخر، فالحسد متعلق بإرادة الحاسد وليس ببصره، والإنسان الذى يحسد، يفعل ذلك اختياراً، فأنت لست مكرها على الحسد، ومكان الحسد هو القلب وليس العينين.

ولكن الذى يحسد لا يفهم معنى النعمة، فالنعمة من الله سبحانه وتعالى ولا يوجد عبد تأتى إليه بعلم منه، بل إن الله سبحانه وتعالى يفتح الأبواب أمام من يشاء ويجعلها صعبة أو مستحيلة أمام من يشاء، تلك حقيقة يجب أن نفهمها، النعمة من الله، وللإبقاء على النعمة عليك أن تردد قول الله تعالى: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩] فى هذه الحالة تنتقل النعمة إلى واهبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى فيبطل الحسد.

ومرة أخرى يجب أن تتذكر أن الله سبحانه وتعالى، قد وضع تكافؤ الفرص فى الكون وليس معنى أنه ميسر لك فى الرزق، أو فى الجاه والسلطان، أنك تملك أسباب الجاه والسلطان والتمتع، فهناك من يملك المال وهو عاجز عن التمتع به، قد تضع أمامه أشهى الأطعمة ولكنه لا يستطيع أن يمد يده إلى لقمة واحدة مما أمامه، لما يعانيه من مرض، وقد تأخذه إلى أجمل بقاع الدنيا ولكنه يجلس فيها حزينا كئيبا، لا يحس بالجمال حوله، وقد يعيش فى قصر كبير، ويكون حارس هذا القصر أو من يخدم فيه أكثر تمتعاً من صاحب القصر نفسه، وأكثر تمتعاً بالحياة والجمال فى هذا القصر، إلى آخر ما تراه فى الدنيا كلها وقد يجعل الله الإنسان الذى يملك كل أسباب الدنيا محتاجا إلى من هم أدنى منه، وربما تكون هناك حاجة تنغص عليه حياته.

والفرص المتساوية قد تخفى علينا ونحن نبحث عن المال والجاه، ولكننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وهب إنسانا نعمة المال، وإنسانا نعمة الصحة، وإنسانا نعمة البركة وإنسانا نعمة اليسر فى الرزق، ومن فقد شيئاً عوضه الله عنه بأشياء، ففاقد البصر له أذن مرهفة تعوضه عما فقد، وفاقد الحركة قد يعطى ذكاء خارقا يجعله أعلى بكثير ممن يتحركون فى الحياة، والأشياء هنا تمضى بمقدار، فإذا كانت الفرص غير متكافئة ظاهرا فذلك لا يخل بتكافؤ الفرص فى الحقيقة، فربما يتمتع إنسان عاجز عن شىء بعطف الناس كثيرا مما يجعله ميسرا فى حياته عن كثيرين.

والحسد هو تمنى زوال النعمة [(١)]، وهذا التمنى قد يأتى بأن تعمل أنت على تعطيل الأسباب التى تؤدى للنعمة ظاهراً، كأن يكون لإنسان أرض وافرة الإنتاج، كثيرة الرزق تحسده عليها، فتأتى وتُغرقها أو تقلع الزرع منها، أو يكون لإنسان بيت جميل أو سيارة فاخرة فتأتى لتحرقها، وقد يكون هذا التمنى بالدعاء بدون الفعل، أو يكون من داخل النفس بحيث يؤثر على المحسود، فيوجد فى داخله ما يؤرق عليه حياته بمجرد إحساسه أن هناك من يتربص به ويتمنى زوال نعمته ويعمل على ذلك.

وإذا كان للحسد أشكال مختلفة كما للسحر، فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما ومادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما، فهما موجودان فى الكون، ولا يمنع وجودهما أنهما شيئان غير ماديين لا يمكن أن نضعهما فى المعمل ونجرى عليهما التجارب العلمية فما هو فوق المادة ومالاتراه العين موجود فى الكون لا يستطيع أحد أن ينكره، ولقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل وشرحنا أن هناك أشياء لم نكن نعلم بوجودها فى الماضى نراها الآن رأى العين، وأشياء لم تكن فى قدرة العقل البشرى منذ مئات السنين قد أصبحت الآن فى قدرة هذا العقل، يستطيع أن يدركها ويستوعبها كحقائق موجودة وملموسة، والإنسان سواء مارس السحر، أو كان حاسداً، فكلاهما معصية لله سبحانه وتعالى، فممارس السحر يريد أن ينتهى بأن يحقق لنفسه خيرا، ولكنه ينتهى وقد أحاط به الشر من كل جوانبه، وأصبح الخير ممتنعا عليه تماما، والحاسد يتمنى زوال نعمة غيره، وهو فى هذه الحالة لن يستفيد شيئاً، فالذى يغرق زراعة غيره أو يهلك أرضه، أو يحرق بيته لن يعطيه الله هذه الأرض أو هذا البيت، وهو فى الحقيقة ظالم لنفسه، أى إنه لم يعطها شيئاً تنتفع به، ولو شيئاً عاجلاً، ولكنه فى الوقت نفسه أعطاها الإثم الذى يوردها موارد الهلاك فى الدنيا والآخرة، وكان الأحرى بالحاسد أن يعرف أن النعمة من الله سبحانه وتعالى وأن الله عنده خير كثير، وأنه يستطيع أن يعطى كلا منا ما يريد بدون أن ينقص ذلك من ملك الله شيئاً، ومن هنا فكان الأحرى به أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى

---

(١) لمزيد من المعرفة والفائدة اطلب كتاب: «الحسد.. الحقيقة والعلاج» لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوى ؛ وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

ليطلب منه ما يشاء، ولكنه بدلاً من ذلك يتمنى زوال نعمة الغير، ولو أن هذا المال أو الجاه، أو السلطان، أو الصحة سيذهب إلى الحاسد لقلنا ربما يبحث عن نفع عاجل، ولكن الحاسد أول من يعلم أنه لا يصله شيء من هذا، وهو فى تصرفه إنما ينسب النعمة إلى المنعم عليه ولو أنه كان مؤمناً حقًا لنسب النعمة إلى خالقها، ولعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى، فكأن الحسد هو اعتراض من الحاسد على إرادة الله سبحانه وتعالى فى أن يهب نعمه لمن يشاء، والاعتراض على الإرادة هنا نوع من الكفر، فهو لا ينكر أن الله هو المنعم فقط، ولكنه يعترض على الإرادة التى أعطت النعمة.

والحقيقة أن حسد النعمة قد لا يصيب إلا الحاسد بحسده، فمادام المنعم عليه يستعيذ بالله لا يصيبه شيء، ومادام لم يغتر وقال ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] ويفسد فى الأرض فإنما النعمة تبقى مادامت منسوبة إلى المنعم، وتزول عندما ينسبها إلى نفسه، فالإنسان الذى يقف متباهيا بغروره ويقول أنا فعلت هذا بذكائى وقدرتى، يقول له الله سبحانه وتعالى مادمت قد أشركت معى شريكا هو ذاتيتك وذكاؤك فأنا أغنى الشركاء عن الشرك، ويتركه فتزول عنه هذه النعمة وتذهب لأنه بذاته لا يستطيع أن يحقق شيئاً ولكن ما يحققه هو بفضل من الله الذى يوفقه ويهديه، وينير له الطريق، ويمنحه الأسباب التى تجعل هذه النعم خاضعة له، ولو زالت بركة الله من المال لذهب فيما لا ينفع، ولو زالت بركة الله من الصحة لكان هناك المرض، ولو زالت بركة الله من أسباب الرزق لأصبحت هذه الأسباب لا تعطى شيئاً رغم كل الجهد الذى بذله ويبذله الإنسان.

يجب أن نعلم أن الناس فريقان، فريق معتمد على الله، ينسب الفضل دائما له، ولا يضره سحر، ولا يحسده حاسد ؛ لأنه محاط بسياج من الله سبحانه وتعالى، وفريق آخر ينسب الفضل لنفسه وهؤلاء إنما يصيبهم زوال النعمة وغيرها لأنهم قد نقلوا القدرة من الله سبحانه وتعالى إلى قدرة البشر، وفرق هائل بين القدرتين.

إذن . . فالله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نستعيذ به من أشياء، وهذه الأشياء إن لم تكن شرا مطلقا فهى شر لنا، ومادام الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعيذ به من هذه الأشياء فهو يعلم أن قدراتنا لا تستطيع أن تواجهها، لأننا لا نعلم شيئاً عن قوانينها، فالجن مثلا يرى الإنسان وهو لا يراه، وجهلنا بقوانين هذه المخلوقات وعدم رؤيتنا لها يجعلنا عاجزين عن أن نواجهها بقدرات الدنيا، وفى هذه الحالة طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نلجأ إليه فيمنع عنا بقدرته هذه الأشياء.

والسحر هو خداع للبصر واسترهاب للنفس، إما بقوانين الأرض، واستخدام الجماجم والأصوات المزعجة، وخفة اليد والحيلة، وإما بقوانين الجان التشكل، ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء، والله سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نستعيذ به من هذه الشرور كلها، ورفع القدرة والأمر إليه، فهو دليل على أنها فوق قدرة العلم البشرى، فلا نجادل

فيها بطريقة معملية مادية، وإنما نأخذها على أساس إخبار الله لنا بها. . خصوصا وقد عرفنا أنه غيب عنا، وكل إنسان مهما بلغ من العلم، يجد فى نفسه استجابة لهذه الأشياء، وعليه أن يستعيذ بالله منها، ومادام الشيء قد خرج عن علم البشر، وما دام ليس فى قدرتك أن تدفعه عنك، فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن ترفع الأمر إليه، فيواجهه هو بقدرته.

وهناك كلمة أخيرة: إن شر ما يصيب النفس البشرية هو الوسوسة، أى الاستماع إلى إغراء الشياطين وقوى الشر، وليس معنى أن الله أخبرنا بهذه الأشياء أن يدخل الخوف والوسوسة إلى قلوبنا، بل معناه أن نحس باطمئنان كامل لقدرة الله، وأننا معه فى أمان تام لأن الله يدفع عنا ولا يدخل إلى قلوبنا لحظة أن هناك قوة أو قدرة تستطيع أن تَحْجُبَ قدرة الله سبحانه وتعالى، مهما كانت، وأن رحمة الله قد أصابتنا حين نستعيذ به من هذه الأشياء، فهذا العلم الذى أنزله الله لنا هو سياج الأمن الذى يحفظنا من كل سوء، ويبعد عنا كل شر، ولا تصدق دجالاً، أو أفاقا، يوهمك أنه يستطيع أن يؤذيك أو يضرك وأنت محاط بسياج من قدرة الله، وحتى أولئك الذين أوتوا العلم بهذه الأشياء، إنما أوتوا الشر الذى يحيط بهم وينهى حياتهم أسوأ نهاية.

على أن بعض الناس يتعلق بالأسباب وحدها، ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون ووضع له قوانين، ثم تخلى عنه، ولكن هذا غير صحيح، فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه إلى يوم القيامة، وطلاقة القدرة باقية فى الكون مع الأسباب.